صور الذوق السليم
في آي الذكر الحكيم

إعداد الدكتور

محمد عبد الوهاب الراسخ

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد

بكلية أصول الدين بطنطا

صور الذوق السليم في آي الذكر الحكيم

محمد عبد الوهاب الراسخ
قسم التفسير وعلوم القرآن في كلية أصول الدين بطنطا – جامعة الأزهر الشريف .
البريد الألكتروني :elrasekh_mohamed@yahoo.com

الملخص:

لا شك أن الذوق له أهمية كبيرة في عرف الناس بحيث إن صاحب الذوق السليم يكون محل إعجاب الناس وثنائهم ، وعلى العكس من ذلك من لا يمتلك الذوق والأدب ، هذا والناظر في وضع مجتمعنا الحالي يدرك تماما أن هناك خللا أخلاقيا لاسيما في مجال الذوق والتعامل مع الآخر ، ومن هنا دار اهتمامي حول هذه القضية للكتابة حولها، وذلك بهدف التأكيد على أن قضية الذوق ليست قضية ثانوية في ديننا الحنيف ، وإنما هي ركن أصيل في تطبيق التكاليف الربانية بشكل مهذب ولائق يساعد على نشر المحبة بين الناس ، كما يهدف هذا البحث إلى التنبيه على أن القرآن الكريم يحوي كنزًا ثمينا من الآداب الذوقية ، بعضها يأتي بشكل صريح والآخر يحتاج إلى مزيد من التدبر في الدلالة القرآنية لبيان ما تحتويه من لطائف جمالية وذوقيات عالية ، هذا وقد تبين من خلال البحث أن للذوق مكانة كبيرة في الشريعة الإسلامية ، وخير شاهد على ذلك كم النصوص التي تمدح أهل الذوق ، إضافة إلى حرص الشرع الشريف على إبراز صور الذوق السليم في مختلف مجالات الحياة ، كما ظهر من خلال البحث أن صور الذوق الواردة في القرآن متنوعة حيث إنها تشمل معظم المجالات الحياتية لاسيما التي لها علاقة بالتعامل مع الغير مثل : ذوقيات المحادثة ، والاستماع ، والحوار وغيرها ، كما اتضح من خلال البحث مدى حرص جمهور المفسرين على إبراز الصور الذوقية الواردة في القرآن الكريم .

الكلمات الافتتاحية : الذوق ، صور الذوق ، الذوق السليم ، الذكر ، الحكيم.

Pictures of good taste in wise mention verses

Muhammad Abdul-Wahhab Al-Rasikh

Department of Interpretation and Quranic Sciences at the Faculty of Fundamentals of Religion in Tanta - Al-Azhar University.

Email: elrasekh_mohamed@yahoo.com

Abstract:

Undoubtedly, taste is of great importance in people's knowledge, so that the person with good taste is the object of people's admiration and praise, and on the contrary, he who does not possess good taste and politeness This and the beholder of the current situation of our society is fully aware that there is a moral defect, especially in the field of taste and dealing with others, and from here my interest in this issue to write about it With the aim of emphasizing that the issue of taste is not a secondary issue in our true religion, Rather, it is an authentic pillar in the application of divine duties in a polite and decent manner that helps spread love among people , This research also aims to warn that the Noble Qur'an contains a valuable treasure of tasteful manners , Some of them come explicitly and others need more reflection on the Quranic connotations to show what they contain of aesthetic and high tastes,This has been shown through the research that

taste has a great place in Islamic law, The best evidence of this is the number of texts that praise the people of good taste, in addition to the keenness of the Shari'a to highlight the images of good taste in various areas of lifeIt also appeared through the research that the images of taste contained in the Qur'an are diverse as they include most areas of life, especially those related to dealing with others, such as:The tastes of conversation, listening, dialogue and others, as it became clear through the research how keen the majority of exegetes were to highlight the taste images contained in the Noble Qur'an, .

key words: Taste, Images of taste, Good taste, Remembrance , wise.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد...

فديننا الإسلامي الحنيف دين تقوم أركانه على أساس أخلاقي قويم ، والدعوة الإسلامية في جوهرها تهدف إلى ترسيخ مكارم الأخلاق ، وهذا واضح في قول رسول الله ﷺ : « بعثت لأتمم صالح الأخلاق » (١) ولاشك أن مرجع الأخلاق الطيبة والآداب العالية إلى الذوق السليم ، فالذوق هو المحرك الذي تنصهر فيه المعاني السامية التي تميز الإنسان عن غيره بما يقدمه من مراعاة لمشاعر الآخرين وأحوالهم المختلفة ، والذوق له أهمية كبيرة في عرف الناس بحيث إن صاحب الذوق السليم يكون محل إعجاب الناس وثنائهم ، وعلى العكس من ذلك من لا يمتلك الذوق والأدب .

هذا والناظر في وضع مجتمعنا الحالي يدرك تماما أن هناك خللا أخلاقيا لاسيما في مجال الذوق والتعامل مع الآخر ، ومن هنا دار اهتمامي حول هذه القضية للكتابة حولها .

أسباب اختيار الموضوع :

يمكنني أن أجمل الأسباب التي دفعتني لاختيار هذا الموضوع في النقاط الآتية :

١ – التأكيد على أن قضية الذوق ليست قضية ثانوية في ديننا الحنيف ، وإنما هي ركن أصيل وعامل أساسي في تطبيق التكاليف الربانية بشكل مهذب ولائق يساعد على نشر المحبة بين الناس .

٢ – التنبيه على أن القرآن الكريم يحوي كنزا ثمينا من الآداب الذوقية ، بعضها

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٢ / ٦٧٠) رقم الحديث (٤٢٢١) . وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، ط : دار الكتب العلمية – بيروت ، ط : الأولى ١٤١١ هـ - ١٩٩٠م .

يأتي بشكل صريح ، والآخر يحتاج إلى مزيد من التدبر في الدلالة القرآنية لبيان ما تحتويه من لطائف جمالية وذوقيات عالية .

٣ – تسليط الضوء على اهتمام المفسرين بإبراز صور الذوق السليم الواردة في آيات القرآن الكريم .

٤ – إبراز مجموعة من الآداب الذوقية التي نفتقدها في هذه الأيام لاسيما فيما يتعلق بأدب الحديث ، وأدب الحوار ، والمناظرة وغيرها من المعاملات الاجتماعية .

٥ – الرد على الاتهامات الباطلة التي توجه إلى المسلمين، وتصفهم بالتخلف والرجعية وعدم اعتنائهم بفنون الذوق أو ما يسمونه (الإتيكيت) .

فهذه الدراسة تثبت كيف أن القرآن الكريم – منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام – وضع أصول الذوق السليم في مختلف مجالات الحياة بما لا يتنافى مع الفطرة الإنسانية ولا يخرجها عن طهرها وعفافها .

مشكلة البحث :

تتلخص في التساؤلات الآتية :

أ – هل قضية الذوق ذات أهمية في الشريعة الإسلامية ؟ .

ب – هل القرآن الكريم يحتوي على قواعد الذوق السليم ؟ .

ج – ما أبرز صور الذوق الواردة في الآيات القرآنية ؟ .

د – هل كان للمفسرين عناية باستنباط الآداب الذوقية من آيات القرآن الكريم ؟ .

منهج البحث :

اعتمدت في هذا البحث على المنهج الاستقرائي التحليلي ، حيث قمت – قدر الاستطاعة – بتتبع الآيات القرآنية التي تتضمن آدابا ذوقية ، ثم قمت بتحليلها من خلال تدبر دلالتها وكلام العلماء حولها ، وأبرزت الأدب الذوقي المستنبط منها ، وبينت أهميته في واقعنا .

ضابط الدراسة وحدها :

هدف هذه الدراسة هو استنباط صور الذوق السليم من خلال آيات القرآن الكريم سواء كان ذلك بالدلالة الصريحة أو الدلالة الضمنية ، وليس المقصود استقصاء جميع الآداب الذوقية في جميع المجالات ، فإن هذا يحتاج إلى دراسة كبيرة وموسعة تدخل فيها مصادر متنوعة من القرآن والسنة وحياة السلف الصالح من الصحابة والتابعين وغيرها ، ومن هنا ينبغي التنبيه على أن محور هذه الدراسة يدور حول تدبر الآيات القرآنية التي تتضمن آدابا ذوقية تحافظ على طهر المجتمع وترابطه .

خطة البحث :

يتضمن هذا البحث مقدمة ، وتمهيدا ، وأربعة مباحث ، وخاتمة :

المقدمة : وقد تضمنت أهمية الموضوع وأسباب اختياره ، ومشكلة البحث ، ومنهجه ، وضابط الدراسة وحدها ، ومحتويات البحث .

التمهيد: وفيه التعريف بالذوق، وبيان مكانته في الشريعة الإسلامية .

المبحث الأول : ذوقيات التخاطب مع الناس .

المبحث الثاني : ذوقيات الإنصات .

المبحث الثالث : ذوقيات الحوار .

المبحث الرابع : ذوقيات متنوعة ، وتحته خمسة مطالب :

المطلب الأول : ذوقيات الضيافة .

المطلب الثاني : ذوقيات المجلس .

المطلب الثالث : ذوقيات طلب العلم .

المطلب الرابع : ذوقيات المسلم في دعاء الحق سبحانه وتعالى ، وفي حديثه عنه جل شأنه .

المطلب الخامس : طائفة من الذوقيات الضرورية في التعامل مع الغير .

الخاتمة : وقد تضمنت أهم النتائج والتوصيات وثبتا بالمراجع والفهارس .

وبعد...

فما كان في هذا البحث من جهد وتوفيق فمن الله وحده ، وما كان من قصور فمن نفسي ومن الشيطان ، وأستغفر الله العظيم منه ، وأسأله سبحانه وتعالى – أن يوفقني للعمل الصالح ، وأن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وصلي الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

التمهيد

تعريف الذوق وبيان مكانته في الشريعة الإسلامية

الذوق في اللغة: مصدر ذاق الشيء يذوقه ذوقا وذواقا ومذاقا، فالذوق والمذاق يكونان مصدرين ويكونان طعما ، كما تقول ذواقه ومذاقه طيب ، والمذاق : طعم الشيء . والذواق : هو المأكول والمشروب ، ومن المجاز أن يستعمل الذوق وهو ما يتعلق بالأجسام في المعاني كقوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ (١)، وقوله ﷻ : ﴿ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ (٢) وتذاوق القوم الشيء كذاقوه (٣) .

الذوق في الاصطلاح :

هو الحاسة التي تميز بها خواص الأجسام الطَّعْمِيَّة بواسطة الجهاز الحسي في الفم ومركزه اللسان ، و(في الأدب والفن) هو حاسة معنوية يصدر عنها انبساط النفس أو انقباضها لدى النظر في أثر من آثار العاطفة أو الفكر ، ويقال هو حسن الذوق للشعر فهامة له خبير بنقده (٤) .

فالذوق كما يكون في المحسوسات يكون أيضا في المعاني ، وهذا هو المقصود هنا ، فالذوق كلمة جميلة تحمل في طياتها معاني التلطف وحسن المعاملة .

وعلى ذلك ومن خلال ما سبق يمكن القول بأن الذوق حاسة معنوية تبعث الإنسان على التحلي بكامل الأدب في التعامل مع الغير في مختلف المجالات،

---

(١) الدخان : ٤٩ .
(٢) التغابن : ٥ .
(٣) لسان العرب لابن منظور (١٠ /١١٢) مادة : ذوق ، ط : دار صادر – بيروت ، ط : الثالثة ١٤١٤ هـ .
(٤) المعجم الوسيط . ت : مجموعة من المؤلفين [إبراهيم مصطفى – أحمد الزيات – حامد عبد القادر] (١ / ٣١٨) ، ط : دار الدعوة ١٤٣١ هـ .

وهي دليل على سلامة القلب وكمال العقل وحسن فهم الدين .

مكانة الذوق في الشريعة الإسلامية :

لما كانت رسالة الإسلام هي الرسالة السماوية الخاتمة بل والخالدة ، فإنها راعت – أيما مراعاة – مسألة الذوق هذه وحثت عليها معتبرة الرقي بالذوق من معالم التطور الفكري والنضج الإسلامي ، فهي ليست من نافلة القول والفعل – كما قد يتصور البعض – فالذوقيات ومراعاتها ليست أمرا عارضا في ديننا ، وليست على هامش ضيق منه ، بل هي أصل أصيل منه ، وجزء مكين فيه ، وهالة عظيمة تحيط بدوائر الأمر والنهي فيه (١).

وقد تعددت صور اهتمام الشريعة الإسلامية بالذوق ، ويظهر ذلك في النقاط الآتية :

أولا : الثناء على أصحاب الأذواق العالية في القرآن والسنة ووعدهم بالجزاء الكبير ، ففي القرآن الكريم نجد الحق سبحانه وتعالى يكرر الثناء على أصحاب الشيم الطيبة ومكارم الأخلاق ، ومن ذلك مدحه لحبيبه ومصطفاه ﷺ قائلا:﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ (٢) ، وقوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ (٣) .

ومن ذلك أيضا ثناؤه ﷻ على أهل العفو بقوله تعالى : ﴿ * وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ

(١) مقال « الإسلام دين الذوق والرقي والحضارة » لـ محمد جمال حليم ، منقول من موقع شبكة الألوكة (alukah.net) .
(٢) القلم : ٤ .
(٣) آل عمران : ١٥٩ .

ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [١] إلى غير ذلك من الآيات .

وفي السنة الشريفة الكثير من الأحاديث التي تثني على أهل الذوق والخلق الرفيع ، ومن ذلك قوله ﷺ : « إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم » [٢] ، وقوله ﷺ : « إن أقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحسنكم أخلاقا » [٣] .

ثانياً : ومن صور الاهتمام أيضا حرص الشرع الشريف على إبراز صور الذوق السليم في مختلف مجالات الحياة بما يضمن إقامة مجتمع راق يتحلى بالطهارة والعفة ، فلو نظرنا في القرآن والسنة سنجد الاهتمام مسلطا على جميع مجالات الذوق سواء ما يتعلق منها بالكلام والمحادثة ، أو الاستماع ، أو ذوقيات الضيافة والمجالس، أو ذوقيات طلب العلم ، وغيرها من الأمور التي ستدور الدراسة حولها ، الأمر الذي يدل على أن ديننا الحنيف كان حريصا على نشر ثقافة الذوق العام بين أفراد المجتمع بما يؤدي إلى شيوع السلام والمحبة بينهم .

ثالثا : حث الإسلام أيضا على الاهتمام بأن تكون لدى أتباعه لمسة فنية في اكتساب المهارات ، والتعامل مع الأدوات ، واستغلال المتاح من الإمكانيات لإخراج أجود ما يمكن ، وهو ما يعد تماشيا مع الذوق العام إن لم يكن ذلك ذوقا مستقلا ، ومن الصور الدالة على ذلك :

أ – الذوق الرفيع الواضح في العمارة الإسلامية التي فاقت عمارات كثيرة لمن يشهد لهم بالسبق في هذا كالمدرسة البيزنطية والفارسية والقبطية، ولعل ما بقي من نماذج للعمارة الإسلامية مما حفلت به الخلافة الأموية والعباسية والأندلسية وغيرها

---

(١) آل عمران : ١٣٣ – ١٣٤ .

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه (١ / ١٢٨) رقم الحديث (١٩٩) وقال : على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢ / ٢٣٥) رقم الحديث (٤٨٥) وعلق عليه الشيخ شعيب الأرنؤوط بقوله : إسناد حسن ، ط : مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط : الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

لخير دليل على ذلك [١] .

ب – استحباب التطيب ، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « حبب إلي من دنياكم النساء والطيب ، وجعلت قرة عيني في الصلاة » [٢] .

ج – الحرص على حسن المظهر ولبس أجود الثياب، لاسيما البيض منها ، يقول المصطفى ﷺ: «البسوا ثياب البيض ، فإنها أطهر وأطيب»[٣].

د – وأيضا حث الإسلام على انتقاء ما يسمع ويشاهد ، بل وما نسمعه غيرنا ونجعلهم يشاهدونه ، محذرا مما يخدش الذوق العام أو يجافي الحياء ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [٤] .

هـ – بل تعدى ذلك بألا نفزع حتى الحيوانات أثناء الذبح ، وفي هذا ما لا يخفى من الرقي والرحمة والذوق حتى مع غير الإنسان ، قال رسول الله ﷺ : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته » [٥] .

رابعا : تأكيد الشريعة الإسلامية على أن الذوق وحسن الخلق في التعامل مع الناس ركن أصيل في الدين وليس أمرا شكليا « فالدِّينُ في المنظور القرآني ليس صلاة وصياما في جهة ، وجلافة وجفاء في التعامل مع الناس في الجهة الأخرى ، بل هو وحدة متكاملة يرتبط فيها الجانب الإيماني بالجانب العملي في الحياة ، قال

(١) مقال : الإسلام دين الذوق والرقي والحضارة .
(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه (٢ / ١٧٤) رقم الحديث (٢٦٧٦) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .
(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٣ / ٣١٠) وقال : حديث حسن صحيح ، ط : مصطفى البابي الحلبي – مصر ، ط : الثانية ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م .
(٤) الإسراء : ٣٦ .
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه : كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوانات ، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة (٣ / ١٥٤٨) رقم (١٩٥٥) ، ط : دار إحياء التراث العربي – بيروت .

تعالى : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [1] فهذه الآية تشير إلى ملامح الشخصية الإسلامية التي ترتكز على جانبين اثنين : جانب الفكر والإيمان وأداء العبادات ، وجانب الممارسة في السلوك الذاتي ، وفي العلاقة مع الناس ومع المواقف الصعبة في الحياة .

نلمح ذلك من خلال تحديد طبيعة البِر الذي يعني التوسع في الخير والإحسان، لأنه يمثل سر الشخصية لدى المؤمن في آفاق التصور وميدان التعامل، فبالإيمان والعمل تتكامل الشخصية وتنطلق » [2] .

خامسا : التأكيد على أن الذوق والتلطف في معاملة الناس هو ركن أصيل في مجال الدعوة إلى الله ﷻ ، وبدونه يحصل النفور ، وتخسر الدعوة الكثير من المدعوين، وهذا الملمح نجده في وصف الحق سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ بقوله:﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ .

وهكذا كان دأب الأنبياء مع أقوامهم ، فلو تدبرت خطاب أنبياء الله ورسله لأقوامهم وردة فعلهم تجاه ما يواجهه به أقوامهم من التكذيب والاستهزاء لوجدت الذوق والرفق في أروع صوره « ويكفيك الوصف العاطفي الذي يورده القرآن عندما

---

(١) البقرة : ١٧٧ .

(٢) مقال : أدب المعاملة في ضوء القرآن الكريم . منقول من موقع البلاغ « www. Balagh.com »

يبدأ بذكر قصة أحدهم عندما يخاطب قومه فيبدأ بذكر أنه (أخاهم) وهذه كلمة عندما تطرق الأسماع تذهب إلى كل معنى جميل ، تتضمن هذه الأخوة من المحبة والعطف والحرص على الهداية ، والسعي للنفع والرفق في القول والفعل المبني على منفعة الدنيا والآخرة .

بل إن كل نبي من أنبياء الله ورسله ﷺ لا يبدأ خطابه ودعوته لهم إلا بكلمة ﴿ يَٰقَوۡمِ ﴾ هذه الكلمة التي تشعر من يوجه له الخطاب بالألفة والقرب الروحي والجسدي فيكون مدعاة لقبول الحديث وفطنة تقبل هذه الدعوة واستجابتها ، فنوح عليه السلام يقول لقومه ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥٩ ﴾ (١)، وتأمل قوله:﴿ يَٰقَوۡمِ ﴾ ، وقوله ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ وما فيهما من الرفق واللين والإحساس بالشفقة والمحبة .

وكذلك نبي الله هود وصالح وشعيب – عليهم السلام – كل هؤلاء الرسل تمثلوا بخلق اللين والرفق والذوق ، فسيدنا هود حينما اتهمه قومه بالسفاهة والكذب لم يتبرم ولم يغضب لنفسه ، بل أجاب قومه بكل ذوق ورفق فقال : ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٧ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٞ ٦٨ ﴾ (٢) .

لهذا فإن على الدعاة أن يهتموا بالذوق والرفق ليصلوا إلى غرضهم ، ولا يجعلوا همهم الغضب والانتقام ؛ لأن ذلك ينفر المدعوين منهم ، ولا يحببهم في

(١) الأعراف : ٥٩ .
(٢) الأعراف : ٦٧ – ٦٨ .

استماع الدعوة وتفهمها » [١] .

وبعد هذا البيان لتعريف الذوق وإبراز مكانته في الشريعة الإسلامية ، ننتقل إلى عرض صور الذوق السليم في القرآن الكريم ، وذلك في ضوء المباحث الآتية :

(١) أدب الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – مع الخلق في القرآن الكريم ، ت : عبد الله بن أحمد الغامدي . جامعة أم القرى – بالمملكة العربية السعودية – كلية الدعوة ١٤٢٩ هـ - ١٤٣٠ هـ .

المبحث الأول
ذوقيات التخاطب مع الناس

المبحث الأول

ذوقيات التخاطب مع الناس

من أعظم النعم التي من الله بها على الإنسان نعمة اللسان والبيان ، يقول الله تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ﴾ (١) ويقول أيضا : ﴿ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ۝٩ ﴾ (٢) .

فباللسان يعبر الإنسان عما في نفسه ، ويتواصل مع بني جنسه ، والكلمة خفيفة على اللسان سهلة الجريان إلا أن لها تأثيرا كبيرا في حياة الناس ، لأنها سلاح ذو حدين ، فهناك كلمة تسر السامع ، وتطيب الخاطر، وتفتح الأمل وتقرب بين الناس، وهناك كلمة تجرح القلب وتكسر الخاطر ، وتقتل الأمل وتشيع الفتن ، ومن هنا أخذت الكلمة مكانتها وقيمتها في نظر الشارع الحكيم ، وأحاطها بهالة من النصوص التي تحث المؤمن على الكلام الحسن وتحذره من الكلام السيء .

فمن القرآن يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ ﴾ (٣) ، ويقول أيضا : ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا ﴾ (٤) .

ومن السنة يقول رسول الله ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » (٥) .

وعلى ذلك ومع هذه الأهمية للكلمة لا أجدني مبالغا إذا قلت إن مظهر الذوق الرفيع يتجلى في الكلمة الطيبة التي يتوجه بها الإنسان إلى غيره ، فالخطاب هو

---

(١) الرحمن : ١ – ٤ .
(٢) البلد : ٨ – ٩ .
(٣) الأحزاب : ٧٠ .
(٤) البقرة : ٨٣ .
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الأدب ، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (٨ / ١١) رقم الحديث (٦٠١٨)، طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق، ثم صورها د / محمد زهير وطبعها ، الطبعة الأولى عام ١٤٢٢ هـ لدى دار طوق النجاة – بيروت .

المرآة التي تبين مدى احترامك للناس ومراعاتك لمشاعرهم ، ولذلك حث الشرع الشريف على ضرورة انتقاء أحسن الألفاظ وأجمل التعبيرات عند التخاطب مع الناس ، وهذا أمر نحن في أمس الحاجة إليه ، لاسيما في هذا العصر الذي تنوعت فيه صور الخروج عن الذوق بالكلام السيء الذي يجرح الآخر ، ويبرز عيوبه ، ولا يراعي مشاعره .

ومن هنا كان ضروريا أن نتوجه إلى القرآن الكريم لنستنبط من أسراره صور الذوق السليم المتعلقة بالكلام والتخاطب الجاري بين الناس ، وهي على النحو الآتي:

الصورة الأولى : إظهار الاهتمام بالمخاطب بتغليب أسلوب الخطاب على الغيبة

من أمارات الذوق الرفيع أن تجعل مخاطبك محل اهتمامك ومدار كلامك ، وخير ما يساعدك على ذلك أسلوب الكلام الذي لابد أن يبتعد عن ضمائر الغيبة ويصطبغ بضمائر المخاطب حتى يشعر بأنه موضع الاهتمام والعناية منك ، وبالتالي يستجيب لما تقول ، وبذلك تكون قد أسرته بأدبك العالي ، وهذه الصورة الذوقية تتجلى لنا في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ ... وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

وحتى يتسنى لنا إبراز المقصود في هذه الآية الكريمة لابد أن نفهم معناها في ضوء سبب نزولها ، فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب ﷺ قال: إن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا،

(١) البقرة : ١٤٣ .

وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت وأنه صلى ، أو صلاها ، صلاة العصر ، وصلى معه قوم ، فخرج رجل ممن كان يصلي معه فمر على أهل المسجد وهم راكعون . قال : أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة ، فداروا كما هم قبل البيت ، وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجال قتلوا لم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ ﴾ (١) ، وبعد عرض سبب نزول الآية يتبادر إلى الذهن سؤال مباشر وهو : لماذا عبر الحق – سبحانه وتعالى – بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ ﴾ . فأضاف الإيمان إلى الأحياء المخاطبين ، والقوم المخاطبون إنما كانوا قد أشفقوا على إخوانهم الذين ماتوا وهم يصلون نحو بيت المقدس ؟ .

هنا تتجلى الصورة الذوقية التي نستنبطها من هذا التعبير القرآني وهي ضرورة إظهار الاهتمام بالمخاطب وإشعاره بأنه محل نظرك واهتمامك وذلك بتغليب أسلوب الخطاب على الغيبة ، وكأنك تقول له : إن الحكم وإن كان يشترك غيرك فيه إلا أنك أولى بالخطاب ، وهذا المعنى أشار إليه الإمام الطبري في تفسيره حيث قال : « إن القوم وإن كانوا قد أشفقوا من ذلك ، فإنهم أيضا قد كانوا مشفقين من حبوط ثواب صلاتهم التي صلوها إلى بيت المقدس قبل التحويل إلى الكعبة ، وظنوا أن عملهم ذلك قد بطل فأنزل الله جل وعلا هذه الآية حينئذ ، فوجه الخطاب بها إلى الأحياء ، ودخل فيهم الموتى منهم ؛ لأن من شأن العرب إذا اجتمع في الخبر المخاطب والغائب أن يغلبوا المخاطب ، فيدخلوا الغائب في الخطاب ، فيقولوا لرجل خاطبوه على وجه الخبر عنه ، وعن آخر غائب غير حاضر : فعلنا بكما وصنعنا بكما كهيئة خطابهم لهما وهما حاضران ، ولا يستجيزون أن يقولوا : فعلنا بهما وهم

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب التفسير ، باب قوله تعالى ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ ﴾ (٦ / ٢١) رقم (٤٤٨٦) .

يخاطبون أحدهما فيردوا المخاطب إلى عداد الغيب » (١) .

الصورة الثانية : عدم إيذاء مشاعر المخاطب بذكر عيوبه وإحراجه أمام الناس

هناك عبارة مشهورة تقول : « ذكر الجفا وقت الصفا جفا » والحق أن هذه العبارة تؤسس لقاعدة ذوقية مهمة مفادها أنه إذا حدث الصفاء بعد الشحناء فليس من الذوق استدعاء ما مضى وتذكير المخاطب بعيوبه، وهذا أدب قرآني نتلمسه في موقف سيدنا يوسف عليه السلام مع إخوته بعد توبتهم، ففي معرض شكره لنعم الله عليه يقول تعالى حكاية عنه : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ ﴾ (٢) وهذه لفتة ذوقية رفيعة من نبي الله الكريم حيث استحضر نعمة الله عليه بإخراجه من السجن ، ولم يذكر إخراجه من الجب مع أن الإحسان فيه أكبر ، وما ذلك إلا مراعاة لمشاعر إخوته حتى لا يذكرهم بما فعلوا فيحرجهم أمام الحاضرين ، وهذا المعنى الجميل التفت إليه أئمة التفسير وسلطوا الضوء عليه ، ففي تفسير الإمام الرازي نجده يذكر عدة وجوه في عدم ذكره إخراجه من الجب ، وأول هذه الوجوه قوله : « أنه قال لإخوته : ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ (٣) ولو ذكر واقعة البئر لكان ذلك تثريبا لهم فكان إهماله جاريا مجرى الكرم » (٤) .

ويقول الإمام القرطبي : « ولم يقل من الجب استعمالا للكرم لئلا يذكر إخوته صنيعهم بعد عفوه عنهم بقوله: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ﴾ »(٥) ونستمر مع هذا الذوق العالي من سيدنا يوسف فنجده « يشير إلى مصائبه السابقة من الإبقاء في الجب ، ومشاهدة مكر إخوته به بقوله : ﴿ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ

(١) تفسير الطبري (٢ / ٦٥٣) ، ط : دار هجر ، ط : الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .
(٢) يوسف : ١٠٠ .
(٣) يوسف : ٩٢ .
(٤) تفسير الرازي (١٨ / ٥١٢) ، ط : إحياء التراث العربي – بيروت ، ط : الثالثة ١٤٢٠ هـ.
(٥) تفسير القرطبي (٥ / ٢٤١) ، ط : دار الحديث – القاهرة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م .

إِخۡوَتِيٓۚ ﴾ [١] فكلمة (بعد) اقتضت أن ذلك شيء انقضى أثره ، وقد ألم به إجمالا اقتصارا على شكر النعمة وإعراضا عن التذكير بتلك الحوادث المكدرة للصلة بينه وبين إخوته ، فمر بها مر الكرام وباعدها عنهم بقدر الإمكان إذ ناطها بنزع الشيطان » [٢] .

وقد أشار الإمام الآلوسي إلى هذه اللفتة الذوقية حيث بين سر إضافته النزغ للشيطان لا لإخوته حيث قال : « وأسند ذلك إلى الشيطان مجازا لأنه بوسوسته وإلقائه وفيه تفاد عن تثريبهم أيضا وذكره تعظيما لأمر الإحسان لأن النعمة بعد البلاء أحسن موقعا » [٣] .

كما نلمح أيضا في هذا المقطع القرآني الكريم أن سيدنا يوسف جعل لنفسه نصيبا من النزغ حيث قال: « بيني وبين إخوتي » ولم يقل : نزغ الشيطان إخوتي ، ونحن نعلم أنه لم يحصل له نزغ أبدا ولكنه قال ذلك جبرا لخاطرهم حتى لا يحرجهم ويجرح مشاعرهم ، وفي ذلك يقول الشيخ السعدي : « وهذا من لطفه وحسن خطابه عليه السلام ، حيث ذكر حاله في السجن ولم يذكر حاله في الجب لتمام عفوه عن إخوته ، وأنه لا يذكر ذلك الذنب ، وأن إتيانكم من البادية من إحسان الله إلي ، فلم يقل : جاء بكم من الجوع والنصب، وقال: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ ﴾ فلم يقل: نزغ الشيطان إخوتي ، بل كأن الذنب والجهل صدر من الطرفين » [٤] .

الصورة الثالثة : ترك استخدام العبارات الصادمة للمخاطب

يتعرض الإنسان منا لبعض المواقف التي تفرض عليه نقل أخبار صادمة لغيره ،

(١) يوسف : ١٠٠ .
(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٣ / ٥٧) ط : الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م .
(٣) تفسير الآلوسي (٧ / ٥٨) ، ط : دار الكتب العلمية – بيروت ، ط : الأولى ١٤١٥ هـ .
(٤) تفسير السعدي ص ٤٠٥ ، ط : مؤسسة الرسالة، ط: الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م .

الأمر الذي يتطلب منه درجة من الحكمة والحنكة بحيث يوصل المعلومة بأسلوب يخفف وطأة الصدمة على المخاطب ، ولا شك أن هذه سمة يعرف بها أهل الذوق من غيرهم ، حيث تظهر لنا المواقف صنفا من الناس لا يبالون بمشاعر الآخرين ، ويتعاملون بأسلوب فظ غليظ في نقل الأخبار مما يترتب عليه الكثير من النتائج السلبية وأخطرها الصدمات النفسية ، ومن هنا كانت عناية القرآن الكريم بإبراز هذه الصورة الذوقية ، وذلك في ضوء موقف سيدنا يوسف مع صاحبي السجن بعد أن قص عليه كل منهما رؤيته التي ذكرها الله ﷻ في قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ ﴾ (١) .

هنا تبين لسيدنا يوسف – بتعليم الله له تأويل الرؤى – أن صاحب الرؤية الأولى الذي يعصر خمرا ناج،وأن الآخر الذي يأكل الطير من خبزه هالك، وهنا يظهر الذوق اليوسفي في كيفية احترام مشاعر الآخرين، وعدم إيذائهم بالعبارات الصادمة التي من شأنها إحباط الهمم، وقتل الأمل ، فنجد أن سيدنا يوسف فسر الرؤيتين إلا أنه أبهم الشخصيات ، فقال في شأن الناجي:﴿ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ ﴾ (٢)، وقال في شأن الهالك: ﴿ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ ﴾ (٣) .

ولا يخفى على أحد أن الحقيقة واضحة ، والأمر معروف للرجلين ، ولكنه الذوق والأدب الذي لابد أن يراعى تخفيفا من حدة الصدمة ، وجبرا لخاطر الناس ، وحري بنا الآن أن ننتقل إلى ميدان أهل التفسير لنرى كيف كانت نظرتهم لهذه اللفتة

(١) يوسف : ٣٦ .
(٢) يوسف : ٤١ .
(٣) يوسف : ٤١ .

الذوقية اليوسفية، وأول النقول التي نوردها ما ذكره الإمام ابن كثير حيث قال:« يقول لهما : ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ ﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خمرا، ولكنه لم يعينه لئلا يحزن ذاك ، ولهذا أبهمه في قوله:﴿ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ ﴾ وهو في نفس الأمر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا » (١) .

وقد أشار الإمام الطاهر ابن عاشور إلى هذا المعنى حيث قال في تفسير الآية : « افتتح خطابهما بالنداء اهتماما بما يلقيه إليهما من التعبير، وخاطبهما بوصف « صَاحِبَيِ السِّجْنِ » أيضا .

ثم إذا كان الكلام المحكي عن يوسف عليه السلام في الآية صدر منه على نحو النظم الذي نظم به في الآية وهو الظاهر كان جمع التأويل في عبارة واحدة مجملة ، لأن في تأويل إحدى الرؤيين ما يسوء صاحبها قصدا لتلقيه ما يسوء بعد تأمل قليل كيلا يفجأه من أول الكلام » (٢) .

ومن التفاسير الحديثة التي لفتت الانتباه إلى هذه الصورة الذوقية ما ذكره الشيخ سيد طنطاوي (٣) في تفسيره الوسيط حيث قال : « ولم يعين يوسف عليه السلام من هو الذي يسقي ربه خمرا ، ومن هو الذي يصلب ، وإنما اكتفر بقوله : أما أحدكما ، وأما الآخر تلطفا معهما ، وتحرجا من مواجهة صاحب المصير السيء بمصيره ، وإن كان في تعبيره ما يشير إلى مصير كل منهما بطريق غير مباشر » (٤) .

---

(١) تفسير ابن كثير (٢ / ٩٥٦) ط : دار الفكر، ط : الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م .
(٢) التحرير والتنوير (١٢ / ٢٧٧) .
(٣) هو المفسر الكبير فضيلة الشيخ / محمد سيد طنطاوي ، علم من أعلام الأزهر ، تولى مشيخة الأزهر سنة ١٩٩٦م ، ومن أبرز مؤلفاته تفسير الوسيط ،وكتاب بنو إسرائيل في القرآن . توفي سنة ٢٠١٠م ، ترجمة منقولة من موقع دار الإفتاء المصرية .
(٤)التفسير الوسيط للشيخ محمد سيد طنطاوي (٣٦٣/٧) ط : نهضة مصر – القاهرة .

هذا وإذا كانت حدود الدراسة في ضوء الآيات القرآنية إلا أنه لا بأس أن نؤكد هذا الأمر بموقف في السنة النبوية المطهرة ، عندما بين رسول الله ﷺ سمات الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وأنهم الذين لا يسترقون ، ولا يتطيرون ، ولا يكتوون ، وعلى ربهم يتوكلون ، فقال عكاشة بن محصن (١) : أمنهم أنا يا رسول الله ؟ قال : نعم ، فقام آخر فقال : أمنهم أنا ؟ قال : سبقك بها عكاشة (٢) .

فهذا ذوق محمدي حيث لم يصدم الرجل بقوله : « لست منهم » وإنما صرف انتباهه لسبب آخر وهو أن عكاشة قد بادر بالطلب قبله ، وهذه اللفتة البديعة أشار إليها القاضي عياض في شرحه لهذا الحديث ، حيث قال : « قيل : إن السائل للنبي ﷺ أن يدعو له أن يكون منهم بعد عكاشة لم يكن عند النبي ﷺ ممن يستحق ذلك ، ولا من أهل تلك الدرجة والصفة الموصوفة كما كان عكاشة ، وقيل : بل كان منافقا فأجابه النبي ﷺ بما كان عليه من حسن العشرة وجميل الصحبة بكلام محتمل ولفظ مشترك، فهو من باب المعاريض الجائزة » (٣) .

الصورة الرابعة : البدء بلين الخطاب قبل العتاب

لاشك أن العتاب من أهم الوسائل التي تديم الود بين الأحبة ، وذلك لأنه يصفي الشوائب التي يمكن أن تقع بينهم بفعل بعض المواقف الحياتية، وعلى الرغم من أن العتاب لا يكون إلا بين من تجمعهم الألفة والمودة ، إلا أنه في بعض الأحيان يستعمل بطريقة قاسية تحمل تعبيرات جافة تؤدي إلى نتائج سلبية تضيع معها المحبة ، ومن هنا أرشدنا القرآن الكريم إلى أن من صور الذوق السليم أن يبدأ

(١) هو الصحابي الجليل عكاشة بن محصن الأسدي ، حليف قريش ، كان من السابقين الأولين البدريين أهل الجنة ، استشهد سنة إحدى عشرة للهجرة . سير أعلام النبلاء للذهبي (٣ / ١٨٩) ط: دار الحديث – القاهرة .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الطب ، باب من اكتوى أو كوى غيره (٧ / ١٢٦) رقم (٥٧٠٥) .

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض (١ / ٦٠٤) ط : دار الوفاء – مصر ، ط : الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م .

العتاب بالكلام اللين الذي تنفتح معه القلوب وتستجيب للمطلوب ، وهذا الأمر نشهده جليا في عتاب الحق – سبحانه وتعالى – لنبيه ﷺ ، ففي سورة التوبة يقول تعالى مخاطبا نبيه ﷺ : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ ... ﴾ [١] فانظر كيف بدأ الحق – سبحانه وتعالى – بإعلان عفوه عن حبيبه ﷺ ، ثم عاتبه بعد ذلك على إذنه للمنافقين ، ، فهل رأيتم لطفا وذوقا وأدبا مثل هذا ؟! وهل سمعتم بمعاتبة أحسن من تلك ، فقد بدأ بالعفو قبل المعاتبة [٢] ، ولاشك أن في هذا تعليما لنا في كيفية معاتبة أحبابنا فـ « يجب على المسلم المجاهد نفسه أن يتأدب بأدب القرآن في قوله وفعله ... ، وليتأمل هذه الملاطفة العجيبة في السؤال من رب الأرباب ، المنعم على الكل ، المستغني عن الجميع ، ويستثير فيها من الفوائد ، وكيف ابتدأ بالإكرام قبل العتب ، وآنس بالعفو قبل ذكر الذنب إن كان ذنب » [٣] .

الصورة الخامسة : التلطف في الكلام باستعمال اللفظ الحسن وترك الألفاظ المستهجنة

نصادف في حياتنا الكثير من المواقف التي تحتمل صيغا متنوعة للتعبير عنها إلا أن صاحب الذوق السليم هو الذي يختار العبارات الملطفة الرقيقة ، ويترك العبارات القاسية الموجعة ، فمثلا هؤلاء الأشخاص الذين يعانون من إعاقة ما ، فالبعض يطلق عليهم (المعوقون) ولاشك أن هذا اللفظ وإن كان توصيفا حقيقيا إلا أنه لفظ جارح وغير لائق ، في حين نجد أن أصحاب الذوق والأدب يسمونهم (ذوي الاحتياجات الخاصة) أو (أصحاب الهمم) ، وهذا هو التلطف الذي يعني : الإتيان

(١) التوبة : ٤٣ .
(٢) الدر المنثور للسيوطي (٤ / ٢١٠) ط : دار الفكر – بيروت .
(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض (١ / ٤٢ – ٤٣) بتصرف يسير. مجلة الأزهر الشريف – لشهر ربيع الأول ١٤٣٦ هـ .

بكلمة أو عبارة ملطفة فرارا من كلمة أو عبارة مستكرهة أو غير لائقة اجتماعيا [١].

هذا ولأن القرآن الكريم كله ذوق وأدب ، فقد جاء أسلوب التلطف فيه في موضوعات متنوعة أسرد بعضها على النحو الآتي :

أولا : في موضوع العلاقة الحميمية بين الرجل والمرأة نجد القرآن الكريم يستخدم ألفاظا محتشمة تكنى عن هذا الموضوع ، فمرة يستخدم لفظ (الملامسة) كما في قوله : ﴿ ... وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ [٢] ، فقد ذهب فريق من المفسرين إلى أن المقصود من الملامسة الجماع .

ومرة يستخدم لفظ « المباشرة » كما في قوله تعالى:﴿ فَٱلْـَٰٔنَ بَـٰشِرُوهُنَّ ﴾ [٣]، يقول الإمام القرطبي: « ﴿ فَٱلْـَٰٔنَ بَـٰشِرُوهُنَّ ﴾ كناية عن الجماع » [٤] .

وتارة يستخدم لفظ « الإتيان » كما في قوله تعالى : ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ.. ﴾ [٥]، يقول الإمام البغوي:«﴿ فَأْتُوهُنَّ ﴾ أي جامعوهن » [٦].

وأحيانا يعبر الحق سبحانه وتعالى عنه بالإفضاء كما في قوله تعالى : ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ... ﴾ [٧] فلو تأملت في هذه الألفاظ جميعها ستجد أنها ألفاظ محتشمة رقيقة لا تخدش الحياء ولا تجرح

(١) معجم المصطلحات اللغوية لرمزي البعلبكي ص ١٧٩ ، ط : دار العلم للملايين – بيروت ، ط: الأولى ١٩٩٠م .
(٢) النساء : ٤٣ .
(٣) البقرة : ١٨٧ .
(٤) تفسير القرطبي (١ / ٦٩٤) .
(٥) البقرة : ٢٢٢ .
(٦) تفسير البغوي (١ / ٢٢٩) ، ط : دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط : الأولى ١٤٢٠ هـ .
(٧) النساء : ٢١ .

الذوق العام .

ثانيا : موضوع قضاء الحاجة : وهو من الأمور ذات الحساسية في المجتمع إلا أن القرآن عبر عنه بألفاظ على درجة عالية من اللطف ، وفرت الستر ، وأعطت المتكلم فرصة للتعبير عنه دون حرج (١) ، ومن هذه الألفاظ :

أ – « الغائط » وذلك في قوله تعالى:﴿ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ ﴾ يقول الإمام القرطبي : « الغائط أصله ما انخفض من الأرض ، وكانت العرب تقصد هذا الصنف من المواضع لقضاء حاجتها تسترا عن أعين الناس » (٢) .

ب – « أكل الطعام » كما في قوله تعالى : ﴿ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ﴾ (٣) فقد ذهب بعض المفسرين إلى أن ذلك كناية عن الحدث ، وذلك أن من أكل وشرب لابد له من البول والغائط (٤) .

ثالثا: موضوع الخسارة والهزيمة :

فالخسارة والهزيمة من المواضيع التي لا يستحب الحديث عنها ، بل إن الكثير يحرص على أن يخفيها ويسترها عن الآخرين أو يخفف من وقعها على النفس ، وقد جاء القرآن الكريم بألفاظ مختلفة للتعبير عن الخسارة بحيث تضمن عدم وقوع ما قد يسببه ذكرها من حرج للمتحدث والسامع ، ومن أهم هذه الألفاظ ما يأتي :

١ – يظهروا عليكم : وقد وردت في معنى الغلبة والهزيمة (٥)، وذلك في قوله قوله تعالى:﴿ كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ .. ﴾

(١) التلطف في لغة القرآن الكريم . رسالة جامعية للباحث : أحمد محمد العموش ص ٨٣ ، جامعة آل البيت – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – عمان . الرقم الجامعي (٠٥٢٠٣٠١٠١٧) .
(٢) تفسير القرطبي (٣ / ١٩٦) .
(٣) المائدة : ٧٥ .
(٤) تفسير البغوي (٢ / ٧٢) .
(٥) تفسير الطبري (١١ / ٣٥٤) .

(١) فالله تعالى يخاطب المؤمنين في سياق التعبير عما قد يفعله المشركون فيهم من أمور قد تلحق بهم الهزيمة،ولكنه لم يقل (إن يهزموكم) بل قال:﴿ يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ ﴾ وهو تعبير فيه من التلطف والرقة ما يجنب المؤمنين الضيق والحرج (٢) .

٢ – تولوهم الأدبار :وقد وردت في القرآن الكريم بصور مختلفة للدلالة على معنى الهزيمة والهرب ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ ﴾ (٣) فقد جاء الخطاب الرباني لعبادة المؤمنين لطيفا في تعبيره عن معنى الفرار حتى لا يثقل عليهم .

٣ – تذهب ريحكم: فقد عبر بها الله ﷻ عن ضعف قوة المؤمنين وهزيمتهم (٤) ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (٥).

وبعد هذا العرض يظهر لنا الذوق القرآني في استخدام العبارات الرقيقة وترك اللفاظ المستهجنة البعيدة عن الذوق .

الصورة السادسة : انتقاء أحسن العبارات في ميدان التناصح والدعوة إلى الخير

من أهم الوظائف التي يمكن أن يقوم بها الإنسان المسلم دعوة غيره إلى الخير ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٦) والمسلم مرآة أخيه ، إن رآه على خير ثبته ودعمه ، وإن رآه على شر نصحه ونبهه ، عملا بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا

(١) التوبة : ٨ .
(٢) التلطف في لغة القرآن الكريم ص ١٢٤ .
(٣) الأنفال : ١٥ .
(٤) تفسير الطبري (١١ / ٢١٤) .
(٥) الأنفال : ٤٦ .
(٦) فصلت : ٣٣ .

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣ ﴾ (١) .

ولاشك أن النصيحة مهما كانت ومهما كان قائلها فهي ثقيلة على النفس ، ولذلك يجب أن تؤدى في ظرف مقبول حتى تؤتي ثمارها ولا تقابل بالعناد . ولذلك يقول الإمام الشافعي : « من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه ، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه » (٢) .

ولو أننا نظرنا في القرآن الكريم سنجد أنه أظهر لنا صورا للذوق السليم في مجال التناصح والدعوة إلى الخير ، وذلك يتجلى في أمرين :

الأول : استخدام عبارات التودد والتلطف مع المخاطب :

من أجمل الأشياء أن تخاطب من تنصح بعبارة تشعره بأنك أخ له وليس أستاذه الذي يأمره وينهاه ، فعبارات الرفق واللين في مجال التناصح لها أثر طيب في القبول والاستجابة ، وهذا ما أبرزه لنا القرآن الكريم في حوارات الأنبياء مع أقوامهم ، ومن ألطف العبارات التي نلمحها في خطاب الأنبياء مع أقوامهم قوله تعالى حكاية عن سيدنا يوسف : ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٣٩ ﴾ (٣) . فانظر كيف اختار سيدنا يوسف وصفا رقيقا أنيقا يخاطب به رفيقي الحبس فقال : ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ﴾ ما أجمله من وصف يشعرهم بأنه واحد منهم ، يعيش حياتهم ، ويعاني همهم ، وهذا يفتح بابا واسعا لسماع ما يقوله وتقبله .

الأمر الثاني : توجيه النصح للنفس مع قصد نصح الغير توددا للمخاطب وتجنبا لسوء الفهم :

من سمات صاحب الذوق السليم ألا يظهر في مجال النصح بمظهر المتعالي

---

(١) العصر ٢ – ٣ .
(٢) تهذيب الأسماء واللغات للنووي (١ / ٥٦) ، ط : دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .
(٣) يوسف : ٣٩ .

المتطهر من كل عيب ، فمثل هذا الموقف يحرج المخاطب ويشعره بنقصه ويبعده عن الاستفادة من النصح ، ولكن يجب على صاحب الذوق أن يتهم نفسه أولا ويوجه لها النصح مسبقا ، فمثل هذا يطيب خاطر المخاطب ، ويجعله يتحمس لسماع النصيحة والاستجابة لها ، وهذه الصورة الذوقية نلمحها في قوله تعالى حكاية عمن جاء من أقصى المدينة ينصح قومه : ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [1] يقول الإمام الزمخشري : « أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويداريهم ، ولأنه أدخل في إمحاض النصح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لروحه، ولقد وضع قوله: ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾ مكان قوله: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم. ألا ترى إلى قوله: ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ ولولا أنه قصد ذلك لقال : الذي فطرني وإليه أرجع » [2] .

الصورة السابعة : مجاراة الكلام الحسن بأحسن منه

من أجمل صور الذوق أن يرد الإنسان على الكلام الحسن بأحسن منه ، فهذا من شأنه أن يفتح قلوب العباد ويكسر ما بينهم من حواجز ، كما يؤدي إلى توثيق علاقات المحبة والمودة بين المسلمين ، وهذا الملمح الذوقي الرفيع نلمحه في حديث القرآن الكريم عن رد التحية ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ ﴾ [3]، يقول الإمام القشيري [4]: « تعليم لهم حسن العشرة

---

(١) يس : ٢٢ .

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري (٤ / ١٠) ، ط : دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ، ط : الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م .

(٣) النساء : ٨٦ .

(٤) الإمام القشيري : عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك القشيري ، شيخ المشايخ وأستاذ الجماعة، الجامع بين أشتات العلوم ، له من التصانيف : « التفسير الكبير » ، و« الرسالة » . توفي سنة خمس وستين وأربعمائة . انظر : طبقات المفسرين للداودي ص ٢٣٧ – ٢٤٢ ، ط :دار الكتب العلمية ، ط : الأولى ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م .

وآداب الصحبة ، وإن من حملك فضلا صار ذلك – في ذمتك – له قرضا ، فإما زدت على فعله وإلا فلا تنقص عن مثله » (١) وتتجلى لنا هذه الصورة الذوقية في قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ﴾ (٢) فهنا لمسة بيانية يتجلى فيها ذوق عال من سيدنا إبراهيم عليه السلام حيث رد على تحية الملائكة بأحسن منها ، فالملائكة حيته قائلة « سلاماً » فكلمة « سلاما » جاءت منصوبة بفعل محذوف تقديره : نسلم سلاما ، وكان رد سيدنا إبراهيم « سلامٌ » فجاءت كلمة « سلامٌ » مرفوعة على الابتداء أو الخبر المقدم ، والرفع في اللغة أقوى من النصب ، والجملة الأسمية أقوى من الفعلية ، لأن الاسمية تدل على الثبوت والاستمرار ، أما الفعلية فمن شأنها الحدوث والتجدد ، وبذلك يكون سيدنا إبراهيم قد رد التحية بأحسن منها ، يقول ابن عاشور: « و"سلاماً" مفعول مطلق وقع بدلا من الفعل ، والتقدير: سلمنا سلاما، و"سلامٌ" المرفوع مصدر مرفوع على الخبر لمبتدأ محذوف ، تقديره : أمري سلام أي لكم ، مثل : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ (٣) ورفع المصدر أبلغ من نصبه ، لأن الرفع فيه تنامي معنى الفعل فهو أدل على الدوام والثبات ، ولذلك خالف بينهما للدلالة على أن إبراهيم عليه السلام رد السلام بعبارة أحسن من عبارة الرسل زيادة في الإكرام » (٤) .

الصورة الثامنة : خفض الصوت عند الكلام

من صور الخروج عن الذوق التي نعاني منها في مجتمعنا تلكم الأصوات المزعجة التي تملأ حياتنا في بيوتنا ، ومحادثاتنا ، ومجالسنا ، والتي لها أثر سلبي على الصحة النفسية لأفراد المجتمع ، ومن هنا جاء الإسلام وأمر بخفض الصوت وعدم رفعه ، ويظهر هذا التوجيه على لسان لقمان الحكيم في وصيته لابنه ، قال

(١) لطائف الإشارات للقشيري (١ / ٣٥٢) ، ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط : الثالثة .
(٢) هود : ٦٩ .
(٣) يوسف : ١٨ .
(٤) التحرير والتنوير (١٢ / ١١٦) .

تعالى : ﴿ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴾ [١] « أي اخفض من صوتك فلا ترفعه إلا إذا استدعى الأمر رفعه ، فإن غض الصوت عند المحادثة فيه أدب وثقة بالنفس ، واطمئنان إلى صدق الحديث واستقامته ... وقوله تعالى ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴾ تعليل للأمر بخفض الصوت ، وللنهى عن رفعه بدون موجب . أي : إن أقبح الأصوات وأبشعها لهو صوت الحمير ، فالجملة الكريمة حض على غض الصوت بأبلغ وجه وآكده ، حيث شبه – سبحانه – الرافعين أصواتهم لغير حاجة ، بأصوات الحمير التي هي مثار السخرية مع النفور منها » [٢] .

يقول الإمام الآلوسي : « والحكمة في غض الصوت المأمور به أنه أوفر للمتكلم وأبسط لنفس السامع وفهمه » [٣] .

كذلك من الآيات التي ترشدنا إلى هذا الخلق قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ... ﴾ [٤] فهذه الآية وإن كانت تتحدث عن هؤلاء الذين رفعوا أصواتهم عند حجرات النبي ﷺ إلا أنها في الوقت نفسه تعلم الإنسان صورة من صور الذوق الرفيع في خفض الصوت وعدم إزعاج الغير .

---

(١) لقمان : ١٩ .
(٢) التفسير الوسيط للشيخ سيد طنطاوي (١١ / ١٢٣) .
(٣) تفسير الآلوسي (١١ / ٩٠) .
(٤) الحجرات : ٢ .

المبحث الثاني
ذوقيات الإنصات

المبحث الثاني

ذوقيات الإنصات

معظمنا يعرف كيف يتحدث ولكن القليل منا من يعرف كيف ينصت، وما ذلك إلا لأن مهارة الإنصات صعبة ، لأنها ضد رغبة النفس في حب الظهور الذي يحتاج إلى التحدث لإبراز الشخصية ، ولكن المفارقة الغريبة أن الناس يحبون الشخص المنصت أكثر ، لأن كل واحد يحتاج إلى من يسمعه ، إلى من يفرغ عنده همومه ومشاكله ، وبالتالي فالشخصية المنصتة محببة للناس ، كما أنها أقل عرضة للزلل ، لأن المبادرة إلى التحدث ومقاطعة الآخرين تحمل في أحيان كثيرة العديد من الأخطاء التي لها أثر سيء في معاملات الناس ، ومن هنا اهتم الشرع الشريف بمهارة الإنصات ، وعدها واحدة من أهم الوسائل التي يجب تأهيلها لاستقبال الأفكار والقضايا التي تفيد الإنسان وتحقق مصلحته ، فنجد القرآن الكريم ينبه إلى ضرورة حسن الاستماع في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ ﴾ (١)، قال ابن عباس – رضي الله عنهما – : « هو الرجل يسمع الحسن والقبيح ، فيتحدث بالحسن وينكف عن القبيح فلا يتحدث به » (٢) .

وإذا نظرنا في القرآن الكريم سنجد أنه ذكر السمع والبصر في تسعة عشر موضعا ، قدم السمع في سبعة عشر موضعا ، وما ذلك إلا لأن السمع عظيم الأثر كبير النفع ، فهو الباب الأول للعلم والمعرفة وفهم التكاليف ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ ... ﴾ (٣) .

كما نجد الحق سبحانه وتعالى يعيب على الكفار عدم الانتفاع بوسيلة الاستماع

---

(١) الزمر : ١٨ .
(٢) تفسير القرطبي (٨ / ٢٠٧) .
(٣) الأنعام : ٣٦ .

في قوله تعالى:﴿ ... وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ (١) بل إن الكفار أنفسهم يندمون يوم القيامة على عدم انتفاعهم بهذه النعمة ، وذلك في قوله تعالى حكاية عنهم:﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ (٢).

إن الإنصات كما يقول وليام أروي في كتابه فن التفاوض : « عظيم الفائدة ، فهو يفتح لك نافذة لترى ما يدور في عقل الطرف الآخر ، كما يجعل الطرف الآخر على استعداد للإنصات إليك » (٣) .

هذا ولأن العصر الذي نعيشه نجد فيه الكثير من صور الخروج عن الذوق في مجال الإنصات كان ضروريا أن نستحضر آيات القرآن الكريم لنستنبط منها ذوقيات الاستماع ، وذلك على النحو الآتي :

الصورة الأولى : استمع لغيرك باهتمام

أول ذوقيات الإنصات أن نستمع للمتكلم بتركيز واهتمام فهذا له أثر طيب في إعطاء المتكلم راحة نفسية يستطيع بها أن يعبر عن كل ما يجول بخاطره إضافة إلى احترامه للمستمع ومده بكل المعلومات التي يحتاجها ، وبذلك يمكن القول بأن المستمع المهتم مكاسبه أكبر فـ « المستمع الجيد يحصل على قلوب الناس بشكل أعمق وإن لم يكن بشيء أسرع ، وذلك لأن كل إنسان يحب الحديث عن نفسه ومشاكله ونجاحه وأولاده ، ولكنه غالبا لا يجد المستمع الجيد ، والمقصود بالمستمع الجيد هو ذلك المستمع الذي يظهر الاهتمام بحديث الغير » (٤) .

وإذا تأملنا في القرآن سنجد أنه سلط الضوء على هذه الصورة الذوقية ، وذلك من

---

(١) الأعراف : ١٧٩ .
(٢) الملك : ١٠ .
(٣) فن التفاوض . ت : وليام أروي ص ٦٧ – ٦٨ ، ترجمة : نيفين غراب ، ط : الدار العربية للنشر والتوزيع – القاهرة ١٩٩٤ م .
(٤) فن الكلام . ت د : إيهاب فكرى ص ٢٨ ، ط : دون للنشر والتوزيع - القاهرة .

خلال أمرين :

أولهما : حثه على ضرورة الاستماع للغير بكامل الانتباه والتركيز ، وذلك يتجلى في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [1] فقوله تعالى : ﴿ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ ﴾ « فيها كناية عن الاهتمام بالمسموع ، فلم يقل مثلا لمن يسمع: إنما ألقى أذنه وأنصت ليستمع بحضور قلب ليعي المسموع ويستقبله بما يناسبه من البحث العقلي.﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ وشهيد صيغة مبالغة على وزن فعيل تدل أيضا على الاهتمام بما يشاهده على الانتفاع به ، فهو يسمع ويشاهد بقلب حاضر وفهم واع بعيد عن الغفلة » [2] .

ومن الآيات التي تشير لهذا المعنى أيضا قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ ﴾ فالحق سبحانه وتعالى هنا عبر بقوله: ﴿ يَسۡتَمِعُونَ ﴾ ولم يقل : يسمعون ، فالسماع يحصل للإنسان دون نية مسبقة فهو يطرأ عرضا ، أما الاستماع فهو الإصغاء بإرادة وعزيمة واهتمام ، يقول ابن عاشور : « والاستماع أشد السمع وأقواه أي يستمعون باهتمام » [3] .

ثانيهما: توبيخه لمن يتعامل مع كلام الغير باستخفاف وعدم اهتمام، وقد ظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [4] « ففي هذه الآية الكريمة ينهانا الحق جل وعلا أن نكون مثل من قالوا: ﴿ سَمِعۡنَا ﴾ وحكم الله بأنهم لا يسمعون ، وهؤلاء هم من أخذوا السمع بقانون الأحداث الجارية على ظواهر الحركة فسمعوا ولم يتلفتوا ....، فهذا السماع منهم كان مجرد انتقال

---

(١) ق : ٣٧ .
(٢) تفسير الشعراوي (٢٣ / ١٤٥٤١) .
(٣) التحرير والتنوير (٢٦ / ٩٩) .
(٤) الأنفال : ٢١ .

الصوت من المتكلم إلى أذن السامع بالذبذبة التي تحدث ، ولم يأخذوا ما سمعوه مأخذا جادا ليكون له الأثر العميق في حياتهم » (١) .

بل إن الحق سبحانه وتعالى جعل من صفات المنافق عدم الاهتمام بكلام محدثه واستهزائه به ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ...﴾ (٢) .

« فهم كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ فيسمعون كلامه ولا يعونه ولا يراعونه حق رعايته تهاونا منهم » (٣) .

الصورة الثانية : تركيز العين على المتحدث وترك الالتفات عنه

الإنصات لا يكون بالأذنين فقط وإنما يكون بالعينين أيضا ، فجميل جدا أن يرى المتحدث منك انتباها وتقديرا لكلامه عن طريق تركيز نظراتك عليه ومعه ، فهذا من شأنه أن يسبغ على المحادثة جمالا وسكينة ويأتي بنتائج رائعة فيها فائدة لكلا الطرفين ، وهذا الملمح الذوقي نأخذه أيضا من قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ يقول ابن عاشور : « والشهيد المشاهد ، وصيغة المبالغة فيه للدلالة على قوة المشاهدة للمذكر ، أي تحديق العين إليه للحرص على فهم مراده مما يقارن كلامه من إشارة أو سحنة ، فإن النظر يعين على الفهم ، وقد جيء بهذه الجملة الحالية للإشارة إلى اقتران مضمونها بمضمون عاملها بحيث يكون صاحب الحال ملقيا سمعه مشاهدا » (٤) .

الصورة الثالثة : عدم مقاطعة المتحدث

من ذوقيات الإنصات العالية أن يفسح المجال للمتحدث حتى يتم فكرته وألا

---

(١) تفسير الشعراوي (٨ / ٤٦٣١ – ٤٦٣٢) .
(٢) محمد : ١٦ .
(٣) تفسير الآلوسي (١٣ / ٢٠٦) .
(٤) التحرير والتنوير (٢٦ / ٣٢٤) .

يقطع عليه حديثه لأن ذلك من شأنه أن يبدد أفكاره ويفسد ترتيبها ، وفي نفس الوقت يوغر صدره على المستمع ، ومن هنا أكد شرعنا الشريف على ضرورة تجنب مقاطعة المتحدث .

ومن الآيات التي تشير إلى هذه الصورة الذوقية قوله تعالى حكاية عن الجن : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (١) .

فانظر هذا الأدب العالي ، فقد تواصوا أولا بضرورة التركيز والاستماع بشكل جيد، وجاء قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قُضِىَ ﴾ ليدل على أنهم استمروا في الاستماع بكامل التركيز والانتباه وذلك دون مقاطعة .

هذا وقد يقول قائل : إن عدم المقاطعة قد تكون للكلام الطيب أما الكلام السيء فلا، والحق أن من الذوق الإنصات حتى يفرغ المتحدث من حديثه أيا كان مضمون هذا الحديث ، ويشهد لذلك ما فعله رسول الله ﷺ مع عتبة بن ربيعة حين جاء يساومه ويقول : « جئت أعرض عليك أمورا فاسمع مني ، فقال له رسول الله ﷺ : قل يا أبا الوليد أسمع ، فتكلم عتبة وعرض على رسول الله ﷺ السيادة والمال في مقابل أن يكف عن دعوته ، وظل رسول الله ﷺ يسمع دون مقاطعة ، فلما فرغ قال له رسول الله ﷺ أفرغت يا أبا الوليد ؟ » (٢) .

فهذا أدب رفيع من رسول الله ﷺ ، فبالرغم من أن عتبة جاء بعرض سخيف يحاول به أن يصرف رسول الله ﷺ عن دعوته ، إلا أن الرسول ﷺ لم يقاطعه ، ولاشك أن هذا درس عظيم يجب أن نستفيد منه في حياتنا لاسيما ونحن نفتقد كثيرا

(١) الأحقاف : ٢٩ .
(٢) أخرجه البيهقي في الاعتقاد ص ٢٦٨ ، ط : دار الآفاق الجديدة – بيروت ، ط : الأولى ١٤٠هـ .

لهذا النوع من الذوق في محادثاتنا ومجالسنا .

الصورة الرابعة : عدم ترك المتحدث حتى ينتهي من حديثه

من أشد الأمور التي تؤذي الإنسان وتؤلمه وتسبب له الحرج أن يكون مستغرقا في الحديث ثم يصدم بترك المخاطب له قبل أن يتم كلامه ، فهذه صورة لقلة الذوق التي من شأنها أن توغر الصدور وتسبب الجفاء بين الناس ، ومن هنا كان تأكيد الشرع الشريف على أن من ذوقيات الإنصات عدم ترك المتحدث حتى يتم حديثه ، ويمكننا أن نلمح هذا المعنى في أدب الجن عند سماعهم للقرآن ، فقد قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ فتذوق معي هذا الأدب الرفيع حيث لم ينصرفوا حتى قضيت التلاوة ، ثم بعد ذلك عادوا إلى قومهم منذرين .

هذا والناظر في حاله ﷺ يجد أنه كان يراعي هذا الأدب الذوقي بشكل كبير ، فقد ورد في الحديث الصحيح أنه ﷺ كان إذا لقي أحدا من أصحابه فتناول أذنه ناوله إياها ثم لم ينزعها حتى يكون الرجل هو الذي ينزعها عنه (١) .

الصورة الخامسة : التفاعل الإيجابي من جهة المستمع

والمقصود بالتفاعل هنا : أن يظهر على المستمع أثناء الحوار ما يدل على اهتمامه بالمتحدث وكلامه حيث : « إن الاستماع فقط للمتكلم لفترة طويلة دون تعليق حركي أو لفظي قد يقلق المتكلم ، بل وقد يعطيه الإحساس بعدم الارتياح ، وهذا غير مطلوب لإقامة حوار ناجح » (٢) .

والتفاعل المطلوب عند الاستماع يأخذ شكلين :

أولهما : التفاعل الحركي أو الجسدي : فلاشك أن تفاعل الإنسان بجسده مع

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١ / ٢٨٦) ط : دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ، ط ك الأولى ١٤١٠ هت – ١٩٩٠ م .
(٢) فن الكلام ص ٣١ .

الخطاب الموجه إليه يجعل المتكلم يشعر بارتياح شديد ويخرج كل ما في نفسه ، الأمر الذي يعود بالنفع على المتكلم والمستمع ، ومن هنا كانت الإشارة القرآنية إلى دلالة التفاعل الحركي على ذوق الإنسان ، ففي سورة المائدة يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (١). ففي هذه الآية الكريمة وإن كان مقصدها الأصلي إبراز الاستجابة الإيمانية من هؤلاء القوم عند سماعهم للقرآن إلا أنها في الوقت نفسه أشارت إلى دلالة ذوقية في كيفية التفاعل الإيجابي مع المحتوى المسموع ، حيث بينت أن القوم تفاعلوا إيجابيا مع ما سمعوه وذلك بتفاعل جسدي حيث فاضت أعينهم بالدمع إضافة إلى العبارة المتمثلة في قولهم : ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ .

وعلى العكس من ذلك يشير الحق سبحانه وتعالى إلى أن التفاعل الحركي السلبي ، واستخدام لغة الجسد عند الاستماع بشكل يوحي بالاستهزاء بالمستمع ، كل ذلك من علامات قلة الذوق ، ففي سورة نوح يصف الحق سبحانه وتعالى حال المعرضين عن دعوة سيدنا نوح بقوله : ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُواْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ ﴾ (٢)، وفي سورة المنافقون يبين الحق تبارك وتعالى دناءة أخلاقهم عند الاستماع بقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ ﴾ أي حركوها استهزاءاً (٣) .

أما الشكل الثاني للتفاعل الإيجابي عند الاستماع فهو التفاعل اللفظي، وذلك بأن يتلفظ المستمع أثناء الحوار بما يشجع المتكلم ويدفعه إلى الاستمرارية في إبداء

(١) المائدة : ٨٣ .
(٢) نوح : ٧ .
(٣) تفسير الطبري (٢٢ / ٦٥٤) .

فكرته، وخير شاهد على ذلك ما فعله الجن عند سماعهم لآيات سورة الرحمن، فعن جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – قال : لما قرأ رسول الله ﷺ سورة الرحمن على أصحابه سكتوا ، فقال : لقد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردودا منكم ، كنت كلما أتيت على قوله: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ [١] قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد [٢] . فانظر هذا التفاعل اللفظي من الجن ، إنه يعطينا درسا عمليا في أحاديثنا من ضرورة التفاعل مع المتكلم ، الأمر الذي يساعد على ثراء الحوار والاستفادة منه بشكل كبير .

(١) الرحمن : ١٣ .
(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٥ / ٣٩٩) رقم (٣٢٩١) .

المبحث الثالث
ذوقيات الحوار

المبحث الثالث

ذوقيات الحوار

الحوار هو مناقشة بين طرفين بغرض الوصول إلى الحق، ويعتبر الحوار من أهم الوسائل التي يعتمد عليها الإنسان للوصول إلى النتيجة السليمة في قضية ما، فالغاية من الحوار « إقامة الحجة، ودفع الشبهة والفاسد من القول والرأي، فهو تعاون من المتناظرين على معرفة الحقيقة والتوصل إليها، ليكشف كل طرف ما خفي على صاحبه منها والسير بطرق الاستدلال الصحيح للوصول إلى الحق » [1].

وحتى يحقق الحوار أهدافه المنشودة يجب أن تتوافر له الأدبيات والذوقيات التي لها أكبر الأثر في إقناع الطرف الآخر وقبوله بالحق .

هذا ويمكننا الإشارة إلى إبراز ذوقيات الحوار في ضوء المحادثات المتنوعة التي وردت في القرآن الكريم ، وذلك على النحو الآتي :

الصورة الأولى : استخدام عبارات التلطف والتودد التي تؤلف القلوب وتزيل الحواجز النفسية

أول الذوقيات المطلوبة في الحوار اختيار العبارات اللطيفة الرقيقة التي تصفي الأجواء وتجعل الجميع مستعدا لتقبل وجهات النظر الأخرى ومناقشتها بهدوء ، ولاشك أن هذه الصورة الذوقية نفتقدها كثيرا في المناظرات والحوارات التي نشاهدها اليوم سواء تلك التي تحدث بين عوام الناس أو حتى في المناقشات العلمية .

« إن بعض المتحاورين في مسائل العلم والدين يخيل إليك أنهم يتقاتلون لا أنهم يتجادلون .. ، وكان الأولى أن يغلب الجو العلمي بهدوئه ورزانته على الجو الانفعالي بشدته وسخونته . إن الكلمة العنيفة لا لزوم لها ، ولا ثمرة تجتنى من ورائها ، إلا أنها تجرح المشاعر وتغير مودة القلوب » [2] .

---

(١) الخلاصة في أصول الحوار وأدب الاختلاف . جمع وإعداد : علي بن نايف الشحود ص ١٧ .
(٢) المرجع السابق ص ١٥ .

ولأن ديننا الحنيف دين الأدب والذوق فقد عني بهذه الجزئية عناية كبيرة ، ونبه على ضرورة استخدام أحسن العبارات في المناقشات والحوارات ، ففي سورة النحل يقول تعالى : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ... ﴾ (١) .

وهنا نجد تفرقة في التعبير بين المطلوب في الموعظة والمطلوب في الجدال ، ففي الموعظة اكتفي بأن تكون حسنة ، أما في الجدال فلم يرض إلا أن يكون بالتي هي أحسن ، بمعنى أنه إذا كان هناك أسلوبان ، أو طريقتان إحداهما حسنة والأخرى أحسن منها وأفضل ، فالمأمور به أن نتبع التي هي أحسن ، وسر ذلك : أن الموعظة ترجع عادة إلى الموافقين الملتزمين بالمبدأ والفكرة ، فهم لا يحتاجون إلا إلى موعظة تذكرهم وترقق قلوبهم ، على حين يوجه الجدال عادة إلى المخالفين ، فكان من الحكمة أن يطلب القرآن اتخاذ أحسن الطرائق وأمثلها للجدال حتى يؤتي أكله ، ومن هذه الطرائق أو الأساليب أن يختار المجادل أرق التعبيرات وألطفها في مخاطبة الطرف الآخر (٢) .

وإذا تتبعنا آيات القرآن الكريم سنجد هذه الصورة الذوقية ماثلة في العديد من الحوارات لا سيما حوار الأنبياء مع أقوامهم ، فها هو سيدنا شعيب يحاور قومه بعبارات لطيفة رقيقة حيث كان يبدأ خطابه معهم بقوله : ﴿ يَٰقَوۡمِ ﴾ وقد تكرر ذلك ست مرات في سورة هود ، وفي سورة يوسف يقول تعالى حكاية عنه : ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ... ﴾ .

ولك أن تلاحظ معي جمال هذا النداء الذي يفيض لطفا وأنسا وكأنه يريد أن يلطف جو الحوار بهذه التعبيرات الرقيقة التي من شأنها أن تشعر الطرف الآخر

---

(١) النحل : ١٢٥ .
(٢) الخلاصة في أصول الحوار وأدب الاختلاف ص ١٥ .

بقربه من المتكلم ، وقد أشار الإمام الآلوسي إلى هذه اللفتة الذوقية فقال : « ولعله إنما ناداهما بعنوان الصحبة في مدار الأشجان ودار الأحزان التي تصفو فيها المودة وتتمحض النصيحة ليقبلا عليه ويقبلا مقالته » (١) .

وفي سورة النازعات يقول تعالى لسيدنا موسى عليه السلام : ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ (٢) « فتأمل امتثال موسى لما أمر به كيف قال لفرعون : ﴿ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ فأخرج الكلام معه مخرج السؤال والعرض لا مخرج الأمر ، وقال : ﴿ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ ولم يقل : إلى أن أزكيك ، فنسب الفعل إليه هو ، وذكر لفظ التزكي دون غيره لما فيه من البركة والخير والنماء ، ثم قال : ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أي أكون كالدليل بين يديك الذي يسير أمامك . وقال : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ استدعاء الإيمانية بربه الذي خلقه ورزقه ، ورباه بنعمه صغيرا وكبيرا » (٣) .

ولولا أن هذه الكلمات النيرات المباركات التي تأخذ باللب وتنفذ إلى شغاف القلب ، ولولا أنها وجدت قلبا قاسيا ماردا على الكفر والطغيان لأثرت فيه وقادته إلى الهدى والرشاد (٤) .

الصورة الثانية : ترك تسفيه الخصم والاستهزاء به

من الأمور الغير لائقة أثناء الحوار تعمد إحراج الخصم والاستهزاء به ، وهذا الأسلوب يلجأ إليه البعض ظنا منه أنه يكسبه تفوقا على خصمه أثناء الحوار ، وهذا

(١) تفسير الآلوسي (٦ / ٤٣٤) .
(٢) النازعات : ١٧ – ١٩ .
(٣) بدائع الفوائد لابن القيم (٣ / ١٠٦١) ، ط : دار عطاءات – الرياض ، ط : الخامسة ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م .
(٤) أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة . ت : محمد إبراهيم الحمد ص ٥٣– ٥٤، ط : دار ابن خزيمة – الرياض ، ١٤١٦ هـ .

من دون شك خطأ كبير وقلة في الذوق حيث إن : « كسب القلوب مقدم على كسب المواقف، وقد تفحم الخصم ولكنك لا تقنعه وقد تسكته بحجة ولكنك لا تكسب تسليمه وإذعانه ... فينبغي في مجلس الحوار التأكيد على الاحترام المتبادل من الأطراف، وذلك لا ينافي النصح، وتصحيح الأخطاء بأساليبه الرفيعة وطرقه الوقورة، فالتقدير والاحترام غير النفاق المرذول، والمدح الكاذب ، والإقرار على الباطل » (١).

وإذا تأملنا في القرآن الكريم سنجد أنه نبه على ضرورة أن يصفو الحوار من أي اسلوب فيه طعن أو سخرية أو تجريح ، ففي سورة هود وفي إطار حديث الحق سبحانه وتعالى عن حال سيدنا نوح مع قومه ، بين الحق سبحانه وتعالى أن سيدنا نوحا اجتهد في تبليغ دعوته إليهم وحاورهم بأسلوب حان مشفق ، وكان دائما ما يستعمل لفظة ﴿ يَٰقَوۡمِ ﴾ لتأليف قلوبهم وإشعارهم بأنه فرد منهم ، ولكنهم واجهوا ذلك كله باستهزاء وسخرية ، فقال تعالى : ﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٦٠ ﴾ (٢) وهنا أعطى سيدنا نوح قومه درسا في الذوق والتعالي عن سفاسف الأمور حيث رد عليهم برفق ولم يقابل إساءتهم بمثلها بل نفي عن نفسه التهمة فقط فقال: ﴿ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ ﴾ (٣) ثم نقلهم إلى القضية الأهم التي فيها منفعتهم وهي كونه رسولا من رب العالمين ، جاء يبلغهم الوحي الإلهي بوجوب إيمانهم بالله وحده .

ونفس الموقف فعله سيدنا شعيب مع قومه حيث إنه بعد أن اجتهد في دعوتهم إلى عبادة الله وحده قابلوا ذلك بالاستهزاء به والتهكم منه حيث قالوا: ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ

(١) الخلاصة في أصول الحوار وأدب الاختلاف ص ٢٥ – ٢٧ بتصرف يسير .
(٢) الأعراف : ٦٠ .
(٣) الأعراف : ٦١ .

ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ (١) « أي إنك لأنت السفيه الجاهل إلا أنهم عكسوا ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية به، كما يقال للبخيل الخسيس:لو رآك حاتم لسجد لك»(٢).

وبعد هذا الأسلوب الذي ينم عن قلة في الذوق نجد أن سيدنا شعيبا استقبله بصدر واسع ولم يقابلهم بالمثل ، بل جاءت عباراته لطيفة تحمل جمال الأدب النبوي والذوق الإيماني ، فقال : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ ﴾ (٣) .

وها هو نبي الله صالح عليه السلام بعد أن اتهموه بالسخرية وكذبوه وقالوا : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ (٤) نجده يحاورهم بأحسن العبارات وألطفها مع لين الجانب، فقال: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ ﴾ (٥) وهكذا يظهر لنا من حوار الأنبياء مع أقوامهم هذا الذوق العالي في تجنب تسفيه الخصم واحتقاره، يقول الإمام الزمخشري: « وفي إجابة الأنبياء – عليهم السلام – من نسبهم إلى الضلال والسفاهة ، بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء وترك المقابلة ، بما قالوا لهم – مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفههم – أدب حسن وخلق عظيم ، وحكاية الله عز وجل ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء ، وكيف يغضون عنهم » (٦) .

وفي سورة الإسراء في إطار حديث الحق سبحانه وتعالى عن حوار النبي ﷺ

(١) هود : ٨٧ .
(٢) تفسير الرازي (١٨ / ٣٨٧) .
(٣) هود : ٨٨ .
(٤) الشعراء : ١٥٣ .
(٥) هود : ٦٣ .
(٦) الكشاف للزمخشري (٢ / ١١٢) .

مع المشركين لإثبات قضية البعث ، يقول الله تعالى : ﴿ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَينْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ ﴾ (١) ، فهذا إثبات لقضية البعث بدليل قوي ، لأن الذي خلقهم أول مرة وأوجدهم من العدم قادر على أن يحييهم بعد الموت ، بل إن الإعادة في قانون البشر أهون عليه ، وهنا يصور الحق سبحانه وتعالى حال المشركين وردة فعلهم بعد هذه الحجة حيث استهزؤوا بأسلوب ينبئ عن قلة في الذوق ، فقال تعالى واصفا حالهم : ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾ أي : يحركون رؤوسهم استهزاءا (٢) ، وبعد هذا الأخذ والرد في الحوار يأتي التوجيه الإلهي لرسول الله ﷺ بأن لا يحمله سوء محاورة الخصم واستهزائه على أن يعامله بالمثل ، بل يجب أن يلتزم بكامل الذوق وأن يتجنب الإساءة والفحش من القول ، فيقول تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ ... ﴾ (٣) .

فهنا « يأمر تبارك تعالى عبده ورسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين، أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن ، والكلمة الطيبة ، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم ، وأخرج الكلام إلى الفعال ، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة ، فإنه عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم ، فعداوته ظاهرة بينة » (٤) .

---

(١) الإسراء : ٥٠ – ٥١ .
(٢) تفسير القرطبي (٥ / ٦٠٧) .
(٣) الإسراء : ٥٣ .
(٤) تفسير ابن كثير (٣ / ١٠٩٧ – ١٠٩٨) ،ط : دار الفكر ، ط : الأولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
م.

الصورة الثالثة: عدم مصادرة حق الخصم وإنصافه من كل وجه

في كثير من الأحيان ندخل دائرة الحوار ونحن واثقون بأن رأينا هو الحق ورأي غيرنا خطأ ، وبناءً على ذلك يظهر الانفعال الشديد بمجرد سماع الرأي الآخر ، ونحاول جاهدين عدم إعطاء الطرف الآخر فرصة لإبداء رأيه ، ونجزم دوما بأن مذهبنا هو الحق وما سواه باطل ، ولكن ومع الأسف يغيب عن بالنا أن الطرف الآخر يكون لديه نفس الشعور ، فهو أيضا يرى أن اعتقاده هو الحق ، ومن هنا تتجلى صورة ذوقية مهمة يجب أن تراعى أثناء الحوار ، وهي إنصاف الخصم وعدم المصادرة على حقه في التعبير عن رأيه، وذلك يتجلى من خلال إجراءين :

الأول : تجنب الجزم بكون مذهبك هو الحق ومذهب خصمك هو الباطل، وهذا المعنى نستنبطه من قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ * قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ (١) .

إن القرآن الكريم يلفت نظرنا إلى صورة ذوقية ما أحوجنا إليها في هذه الأيام التي انتشر فيها التعصب والغلو ، وصار احتكار الحق سمة أهل التطرف ، فالحق سبحانه وتعالى هنا يوجه رسوله ﷺ إلى إنصاف خصمه وترك الجزم بأنه على الحق حتى لا يوغر صدر خصمه فيتمادى في العناد، فقال : ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ « فرسول الله يقول لهم : نحن وأنتم على طرفي نقيض ، نحن نقول لا إله إلا الله وندعو إلى الخير ، وأنتم تكفرون بالله وتدعون إلى الشر ومع ذلك لا أحكم لي بالهدى ، ولا عليكم بالضلال ، بل أقول :

(١) سبأ : ٢٤ .

أنا وأنتم على النقيض ، إن كان أحدنا على الهدى فالآخر في الضلال . بالله عليكم هل رأيتم حجاجا أرق من هذا الحجاج ؟ فرسول الله لم يحكم لنفسه وللمؤمنين معه بالهدى رغم وضوحه في جانبهم ، ولم يحكم على الكفار بالضلال رغم وضوحه في جانبهم » (١) .

وقد أشار الإمام الرازي إلى هذه اللفتة الذوقية عند تفسيره لهذه لآية، فقال: « هذا إرشاد من الله لرسوله إلى المناظرات الجارية في العلوم وغيرها ، وذلك لأن أحد المتناظرين إذا قال للآخر هذا الذي تقوله خطأ وأنت فيه مخطئ يغضبه وعند الغضب لا يبقى سداد الفكر وعند اختلاله لا مطمع في الفهم فيفوت الغرض ، وأما إذا قال له بأن أحدنا لا يشك في أنه مخطئ والتمادي في الباطل قبيح والرجوع إلى الحق أحسن الأخلاق فنجتهد ونبصر أينا على الخطأ ليحترز فإنه يجتهد ذلك الخصم في النظر ويترك التعصب ، وذلك لا يوجب نقصا في المنزلة لأنه أوهم بأنه في قوله شاك ويدل عليه قول الله تعالى لنبيه : ﴿ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ ﴾ مع أنه لا يشك في أنه هو الهادي وهو المهتدي وهم الضالون والمضلون » (٢) .

والإجراء الثاني : إعطاء الخصم المساحة الكافية لعرض رأيه ووجهة نظره .

من ذوقيات الحوار الناجح أن يعطي الإنسان لخصمه الفرصة للتعبير عن رأيه ، ومن يتتبع آيات القرآن الكريم يدرك بوضوح أيضا إنصاف القرآن الكريم لخصومه ، وإعطاءهم كامل الحق في إبراز حججهم وبراهينهم ، فتقرأ قوله تعالى مخاطبا الكفار: ﴿ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ (٣) بل تأمل حوار الحق سبحانه وتعالى مع إبليس وكيف منحه الفرصة ليذكر سبب عدم سجوده لسيدنا آدم،

(١) تفسير الشعراوي (٢٠ / ١٢٣٢٣) .
(٢) تفسير الرازي (٢٥ / ٢٠٥) .
(٣) البقرة : ١١١ .

بل وسمع حجته وتهديده لبني آدم، فيقول تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾ (١) ، فالحق سبحانه وتعالى – وهو صاحب الحق المطلق والقدرة والقهر – أنصف كبير الشياطين في الحوار، وسمح له بمساحة كافية يعبر فيها عن رأيه .

هذا ومن أجمل ما قرأته – مبينا لدور القرآن الكريم في تأصيل هذه الصورة الذوقية – مقال للأستاذ / أبو زيد الإدريسي بعنوان : لغة الحوار في القرآن الكريم ، وقد طرح في هذا المقال سؤالا حيث قال : هل القرآن الكريم دعوة إلى الحوار ، أم دعوة إلى التبليغ التلقيني المتعالي ، أم دعوة إلى الإقصاء الذي هو عكس الحوار؟ كيف نثبت ذلك لغوياً باللغة المحضة، باللغة كمادة موضوعية محكومة بقواعد بعيدا عن التأويلية والانتقائية ؟ .

يقرر بعض المفكرين أن القرآن الكريم ما ادعى دعوى إلا كان له من نفسه عليها دليل ، أي أن القرآن مستغن بذاته عن خارجه ، وأنه لا شيء في القرآن كدعوى أو منهج أو شعار إلا ومادة القرآن تقدم عليه أمثلة وتطبيقات ونماذج ، وأنا أستأنس بهذه الإشارة لكي أقول إن القرآن الكريم يدعوا إلى الحوار ، ومن مستلزماته الاعتراف بالطرف الآخر وبحقه في الوجود والتعبير عن رأيه ، وبحقه في الاختلاف مع الغير الذي قد يكون هو الحق الذي هو القرآن ! القرآن الكريم يؤسس لهذا ، ودليلي من اللغة هو فعل « قال » أو مادة « القول » باعتبارها مؤشرا لغويا حاسما وصارما على حوارية أي نص .

وبالنظر في القرآن نجد أن هذه المادة موزعة على تسعة وأربعين اشتقاقا، تتوزع

(١) الأعراف : ١٢ – ١٦ .

على كل أطراف المقام الحواري من متكلم ومخاطب ومستمع ومحاور ومقاطع وغائب وحاضر ومذكر ومؤنث ومثنى وجمع ، فنجد « "قال » ٥٢٩ مرة ، و« يقولون» ٩٢ مرة ، و« قالوا » ٣٣٢ مرة، و« قولوا » ١٣ مرة ، و« قيل » ٤٩ مرة، و« القول » ٥٢ مرة ، و« قولهم » ١٢ مرة .

وقد استنبط صاحب المقال من هذه الإحصائية بعض الإشارات :

أولها : استحضار الرأي الآخر بكثرة ، فالمتتبع للحوارات الواردة في القرآن يجد أن الرأي الآخر يستغرق تقريبا خمسين بالمائة ، وهذا مؤشر مهم على إنصاف القرآن الكريم للخصم وإعطائه حقه في التعبير عن رأيه .

ثانيها : أن القرآن الكريم يستحضر الآخر رغم فساده ، فالآخر ليس مهمشا، فالقرآن يستحضر الآخر استحضارا كاملا، ويعطيه الفرصة الكاملة لكي يتم جملة مفيدة ، ليتم فكرة واضحة بكل قوتها .

وثالثها : أن القرآن يسبغ جمالية أدائه البياني وبراعة أسلوبه على الآخر ، فعندما نقرأ في القرآن وينتقل الكلام من كلام الله بأسلوبه العالي الرفيع لا يحكي عن الآخر بلغة ركيكة وأداء رديء وبيان ضعيف ، بل بالعكس إن القرآن الكريم يخلع أداء الجمال البياني على الجميع فتجد تعبير القرآن الكريم عن الآخر أجمل من تعبيره هو ، فالدهريون يقولون : إن هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع ، والقرآن يحكي عنهم : ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ ﴾ (١) فالتعبير القرآني أبلغ وأجمل لأنه يمنح الآخر فرصة الحضور في التاريخ ، ويمنحه فرصة الحضور في الجمال ، والحضور المعنوي .

ورابعها : القرآن يخلد الرأي الآخر ، لأن القرآن كلام الله والله وعد بخلوده . ثم

(١) الجاثية : ٢٤ .

ختم مقاله قائلا : إن كان من درس نقف عليه بعد هذا الإحصاء لمؤشر الحوار فهو أن القرآن الكريم يريد أن يعطينا درسا في الانفتاح على الرأي الآخر ، درسا في قبول حق الرأي الآخر في الوجود وليس صوابيته . فالصوابية مجال تدافع فكري ومعرفي قائم على النزاهة ، أي على طلب الحق ، وأول شروط النزاهة أن تترك الآخر لكي يقع تدافع موضوعي بين رأيك ورأيه.

وإن كان من درس نأخذه من هذا المؤشر الأول هو أن الإسلام هو عين الإيمان بحرية الفكر وحرية الرأي الآخر (١) .

الصورة الرابعة : ترك إصدار الأحكام في مستهل الحوار

فمن المحاورين من يكون على بينة من أمره ، وعلى علم بمادة حواره ، ولكنه يتعجل النتائج ، فيصدر أحكامه في بداية حديثه ، ويجهر برأيه الصريح في مستهل حواره ، وهذا مما قد يسبب رد كلامه ، والاعتراض عليه ، والنفور منه ولو كان الحق معه .

فمن الحكمة أن يتدرج المحاور في طرح أفكاره ، ومن حسن السياسة أن لا يجهر برأيه الصريح في صدر المقالة . وإنما يبتدئ بما يخف على المخاطبين سماعه من المعاني الحائمة حول الغرض ، ثم يعبر عن المراد بلفظ مجمل ، ثم يدنو من إيضاحه شيئا فشيئا ، حتى لا يفصح عنه إلا وقد ألفته نفوسهم ، وهدأت له خواطرهم .

وعلى هذه الطريقة جرى مؤمنُ آل فرعون ، فقد كان يكتم إيمانه وهو يحب أن يظهره ، ويدعو قومه إلى مثله . وكان يخشى بادرة غضبهم أو انتقامهم منه إذا هو صرح بعقيدته .

---

(١) مقال لغة الحوار في القرآن الكريم للأستاذ : أبو زيد الإدريسي . مجموعة مواقع مداد – تاريخ النشر ٨ / ١١ / ٢٠٠٧ م .

وعندما أجمعوا على قتل موسى عليه السلام بادر هذا المؤمن الفرصة ، واغتنم هذا الوقت ، فقام ينكر عليهم هذه المؤامرة المخزية ، وتخلص إلى أن دعاهم إلى الإيمان بما بعث به هذا الرسول دعوة ظاهرة . قال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ (١) فلقد فاتحهم بالإنكار على قتله ، وهذا لا يدل على أنه مصدق برسالته ؛ إذ قد ينهى العاقل عن سفك دم الرجل وهو من أبغض الناس إليه تألما من مشهد الظلم ، أو حذرا مما ينشأ عنه من فتنة .

ودل بقوله : ﴿ أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ على ما لهذا الرجل من فضل في العقيدة ، وأما أنه لم يجئ شيئا نكرا يستحق به هذه العقوبة الصارمة .

وذكرهم إذ قال : ﴿ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ بالدلائل القائمة على صدقه في دعوى هذه الرسالة ، وأخذ يتقرب بهذه الجملة من دعوتهم إلى ربه ، ولم يرد التظاهر بأنه من شيعته ، فعزل نفسه عمن جاءهم بهذه البينات ، وأضاف مجيئها إليهم خاصة ، ثم استرسل في موعظته المنسوجة ، ودعاهم إلى دين الحق بقوله الصريح كما قال تعالى عنه : ﴿ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ ﴾ (٢) ولو أنه فاتحهم بهذه الدعوة الصريحة في بداية خطابه لربما ردوه ، ولم يقبلوا منه شيئا البتة (٣) .

الصورة الخامسة : خفض الصوت عند الحوار

من الذوقيات اللازمة في الحوار الهدوء وعدم رفع الصوت ، فالصوت المعتدل

(١) غافر : ٢٨ .
(٢) غافر : ٤١ – ٤٢ .
(٣) أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة ص ٨٥ – ٨٦ .

الهادئ من غير صراخ أو صياح هو الأدخل إلى النفوس والأنفذ إلى الأعماق والأحفظ لجلال الكلمة ووقار المتكلم ، أما رفع الصوت فإنه لا يقوي حجة صاحبه قط ، وفي أكثر الحالات يكون صاحب الصوت الأعلى قليل المضمون ضعيف الحجة ، يستر عجزه بالصراخ (١) ومن هنا جاء التوجيه القرآني بضرورة التزام الهدوء وعدم رفع الصوت ، وذلك فيما جاء على لسان لقمان الحكيم في وصاياه لابنه ، قال تعالى : ﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩ ﴾ يقول ابن كثير : « ﴿ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ ﴾ أي لا تبالغ في الكلام ، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه » (٢) ، « والحكمة في غض الصوت المأمور به أنه أوفر للمتكلم وأبسط لنفس السامع وفهمه » (٣) .

الصورة السادسة : إنهاء الحوار بالسلام والدعاء

للخاتمة وقعها في النفوس وأثرها الذي يبقى في الأذهان ، فهي آخر عهد المستمع بالمتكلم ، وهي في الحقيقة أكثر النقاط استراتيجية في الخطاب ، فما يقوله الإنسان في النهاية يبقى يرن في آذان المستمعين (٤).

ومن أهم الذوقيات اللازمة عند ختم الحوار التصريح بالسلام والدعاء ، فهذا من شأنه أن يضفي جوا من الهدوء والراحة لدى المتحاورين ، وفي الوقت نفسه يزيل أي أثر للانفعالات الحاصلة أثناء الحوار ، وبذلك تدوم صلة الود والمحبة بين المختلفين.

وهذه الصورة الذوقية نلمحها في القرآن الكريم في حوار سيدنا إبراهيم مع أبيه ،

---

(١) مقال أدب المعاملة في ضوء القرآن الكريم .
(٢) تفسير ابن كثير (٣ / ١٤٤٨) .
(٣) تفسير الآلوسي (١١ / ٩٠) .
(٤) الإيجابية في ختم الحوار . ت أ : محمد بن عادل السيد ص ١٧ ، ط : الرياض ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م .

حيث ختم حواره بقوله : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ... ﴾ [١] أي « لك مني يا أبت السلام الذي لا يخالطه جدال أو أذى ، والوداع الذي أقابل فيه إساءتك إلي بالإحسان إليك » [٢] .

ولروعة الدعاء حين يأتي في خاتمة الحوار ملطفا ومطمئنا للطرف الآخر آثره نبي الله يوسف عليه السلام حين كان حديثه مع إخوته بعد رحلة طويلة مع الفتن والابتلاءات ، فحين جاءوا معتذرين يقولون : ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ [٣] رد عليهم بلطف وختم بالدعاء ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [٤] [٥] .

(١) مريم : ٤٧ .
(٢) تفسير الوسيط (٩ / ٤٣) .
(٣) يوسف : ٩١ .
(٤) يوسف : ٩٢ .
(٥) الإيجابية في ختم الحوار ص ٢٢ .

المبحث الرابع
ذوقيات متنوعة

المبحث الرابع
ذوقيات متنوعة

في هذا المبحث سأذكر مجموعة متنوعة من الصور الذوقية المهمة في حياة الإنسان المسلم ، وهي على النحو الآتي :

المطلب الأول : ذوقيات الضيافة .

المطلب الثاني : ذوقيات المجلس .

المطلب الثالث : ذوقيات طلب العلم .

المطلب الرابع : ذوقيات المسلم في دعاء الحق سبحانه وتعالى ، وفي حديثه عنه جل شأنه .

المطلب الخامس : طائفة من الذوقيات الضرورية في التعامل مع الغير .

المطلب الأول

ذوقيات الضيافة

الضيافة من السلوكيات الإنسانية التي تعارفت عليها جميع شعوب الأرض، وتعتبر من الأخلاقيات الحميدة التي تقرب بين الناس «وقد كان العرب في الجاهلية يتباهون بكثرة الأضياف ، فيسعون إلى اجتذابهم في الليالي الباردة بإيقاد النار على رؤوس الجبال حتى يراها المسافر فيقصدها » (١) .

ولأن الإسلام جاء متمما لمكارم الأخلاق ، فقد أقر هذا السلوك بل وضع له ذوقيات وآدابا سنحاول إبرازاها في ضوء آيات القرآن الكريم على النحو الآتي :

أ – الصور الذوقية المتعلقة بالمضيف « صاحب الضيافة » :

تتعدد الآداب والذوقيات المطلوبة من صاحب الضيافة، ويمكن إجمالها فيما يلي:

أولا : الترحيب بالضيف بأحسن العبارات

طريقة استقبال الضيف هي الأهم في كافة مراسم الاستقبال ، لأنها تشكل الانطباع الأول للضيف وتكشف له مدى قدره عند المضيف ، ومن هنا كان من أهم الذوقيات التي يجب أن يراعيها المضيف أن يحسن استقبال ضيوفه ويكون ذلك باستخدام عبارات الترحيب التي تسعد الضيف وتزيل عنه حواجز الحرج والقلق ، ومن تلك العبارات مثلا أن يقول: أهلا وسهلا ضيوفي الأعزاء فلقد حللتم أهلا ووطئتم سهلا ، ولقد ازداد القلب فرحا برؤيتكم .

وهذا الملمح الذوقي نجده في القرآن الكريم في كيفية استقبال سيدنا إبراهيم للملائكة ، حيث قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ ﴾ وهنا نلحظ أن السلام جاء على ألسنتهم بالنصب ، والرد بالسلام جاء

(١) الضيف في القرآن الكريم « دراسة موضوعية » ت أ : أحمد خالد شكري ، د / بشرى موسى ص ١١ ، ط : مجلة الجامعة للدراسات الإسلامية – أصول الدين – الشريعة : الأردن - .

بالرفع، وقولهم: ﴿سَلَٰمًا﴾ دل على فعل يوضح التجدد، والرد جاء بكلمة ﴿سَلَٰمٌ﴾ بالرفع ليدل على الثبات والإصرار، والحق سبحانه وتعالى هو القائل : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ (١) ، وبذلك نجد أن سيدنا إبراهيم عليه السلام قد حياهم بأحسن من تحيتهم ؛ لأنه جاء بجملة اسمية دالة على الدوام والثبات فهي أبلغ (٢) .

وإذا نظرنا في حال النبي ﷺ سنجد أنه كان يحسن استقبال الوفود ، ومن ذلك لما جاءه وفد عبد القيس قال : « مرحبا بالوفد الذين جاءوا غير خزايا ولا ندامى » (٣).

ثانيا : العجلة في تقديم واجب الضيافة

كذلك من الذوقيات المطلوبة من المضيف المبادرة بتقديم واجب الضيافة من طعام وشراب ونحوه ولا يتأخر في ذلك ، ولعل هذا مناف للنظريات الذوقية التي أصبح يتبعها البعض عند الضيافة ، وذلك في سؤالهم الضيف عما يرغب في تناوله، وعلى ذلك تصبح المسألة فيها أخذ ورد وإيجاب ورفض مما قد يسبب التكلف والإحراج سواء للضيف أو المضيف ، ومن هنا كان الأفضل ترك المسألة لكرم المضيف دون تكلف ، وهذا الملمح الذوقي المتعلق بالعجلة في تقديم واجب الضيافة نلمحه أيضا في قصة سيدنا إبراهيم مع الملائكة حيث قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ ﴾ فقوله تعالى: ﴿ فَمَا لَبِثَ ﴾ يدل على مبادرة سيدنا إبراهيم بتقديم واجب الضيافة حيث إن « ما » في قوله ﴿ فَمَا لَبِثَ ﴾ نافية ، واللبث في المكان معناه عدم الانتقال عنه ، أي « فما أبطأ وما تأخر عليه السلام عن إكرامهم ، بل بمجرد أن انتهى من

(١) تفسير الشعراوي (١١ / ٦٥٤٩) .
(٢) تفسير الشعراوي (١١ / ٦٤٥٩) .
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الأدب ، باب قول الرجل: مرحبا (٨ / ٤١)

رد التحية عليهم ، أسرع إلى أهله فجاءهم بعجل حنيذ » (١) .

كذلك في سورة الذاريات يقول تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٢) فالفاء هنا في كلمة « فراغ » تشعر بأنه بادر بالذهاب ولم يتمهل (٣) .

ثالثا : إحضار واجب الضيافة بطريقة لا تحرج المضيف ولا تتعبه

ذكر العلماء أن من أدب المضيف أن يبادر بالقرى من غير أن يشعر به الضيف حذرا من أن يمنعه ، أو يصير منتظرا .

وهذه الصورة الذوقية نتلمسها أيضا في قصة سيدنا إبراهيم ، حيث قال تعالى : ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ ، « أي ذهب إليهم في خفية من ضيوفه ، ومن أدب المضيف أن يخفي أمره ، وأن يبادر بالقرى من غير أن يشعر به الضيف حذرا من أن يكفه ويعذره » (٤) .

وقد ذكر الإمام الرازي هذا الملمح الذوقي ، وبين فوائده حيث قال : « الروغان يدل على السرعة، والرَّوْغ الذي بمعنى النظر الخفي أو الرواح المخفي أيضا كذلك، ثم الإخفاء ، فإن المضيف إذا أحضر شيئا ينبغي أن يخفيه عن الضيف كي لا يمنعه من الإحضار بنفسه حيث راغ هو ولم يقل هاتوا ، وغيبة المضيف لحظة من الضيف مستحسن ليستريح ويأتي بدفع ما يحتاج إليه ويمنعه الحياء منه » (٥) .

كذلك من الذوق أيضا عدم إجهاد الضيف بنقله من مكان إلى آخر لتناول

---

(١) تفسير الوسيط (٧ / ٢٣٩) .
(٢) الذاريات : ٢٤ – ٢٦ .
(٣) تفسير الآلوسي (١٤ / ١٣) .
(٤) الكشاف للزمخشري (٤ / ٣٩٢) .
(٥) تفسير الرازي (٢٨ / ١٧٧) .

الطعام ، وهذا ما نستفيده من قوله تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم ، حيث قال تعالى: ﴿ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ ...﴾ يقول الإمام الآلوسي : « ﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾ بأن وضعه لديهم ، وفيه دليل على أن من إكرام الضيف أن يقدم له أكثر مما يأكل ، وأن لا يوضع الطعام بموضع ويدعى الضيف إليه » (١) .

رابعا : أن يقدم أحسن ما عنده

كذلك من ذوقيات الضيافة أن يأتي المضيف بأفضل ما يكون عنده في بيته تماما كما فعل سيدنا إبراهيم حيث جاء للملائكة بعجل سمين حينئذ أي مشوي ، قال تعالى : ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ۝٢٦ ﴾ « فالعجل : ولد البقرة ، و﴿ سَمِينٖ ﴾ أي ممتلئ الجسد بالشحم واللحم ، والفاء في قوله تعالى ﴿ فَجَآءَ ﴾ هي الفاء الفصيحة حيث أفصحت عن جمل قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها ، وإيذانا بكمال سرعة المجيء بالطعام ، أي فذبح عجلا فحنذه فجاء به ، ... ولو كان عنده أطيب لحما منه لأكرمهم به » (٢) .

خامسا : حضه على تناول واجب الضيافة بأحسن العبارات

وإذا كنا في رحاب ضيافة سيدنا إبراهيم للملائكة ، فيمكن أن نلمح هذا الذوق الرفيع في قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم : ﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ۝٢٧ ﴾ (٣)، وتأمل جمال الأسلوب في قوله : ﴿ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴾ فـ « ألا » أداة تحضيض تستخدم للطلب اللطيف الذي لا أمر فيه ، وقد لفت الإمام الرازي النظر إلى هذا الملمح الذوقي وهو يفسر هذه الآية الكريمة حيث ذكر أن من ذوقيات الضيافة العرض لا الأمر ، حيث قال – أي سيدنا إبراهيم – ﴿ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴾

(١) تفسير الآلوسي (١٤ / ١٣) .
(٢) تفسير الآلوسي (١٤ / ١٣) .
(٣) الذاريات : ٢٧ .

ولم يقل : كلوا [١] .

سادسا: عدم تعريض الضيوف للإهانة

فمن ذوقيات الضيافة أن يحوط المضيف ضيفه بالاحترام والتقدير والتكريم ، وألا يعرضه للإهانة والإساءة ، لأن في ذلك إهانة له ، وهذا المعنى نلمحه في غضب سيدنا لوط من قومه عندما أرادوا الإساءة لضيفه بأعمالهم القبيحة ، فنهرهم وقال لهم – كما حكي الله عنه في سورة هود : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ ﴾ [٢] « والخزي الإهانة المذلة ، وأراد مذلته ، و﴿ فِي ﴾ للظرفية المجازية ، جعل الضيف كالظرف ، أي لا تجعلوني مخزيا عند ضيفي إذ يلحقهم أذى في ضيافتي ، لأن الضيافة جوار عند رب المنزل » [٣] .

ب – الصور الذوقية المتعلقة بالضيف :

كما أن هناك ذوقيات تتعلق بالمضيف ، فهناك ذوقيات تتعلق بالضيف ، وتتمثل في الأمور الآتية :

أولا : البدء بالاستئذان ثم السلام

فعلى الضيف أن يستأذن قبل الدخول ، ثم إذا دخل يسلم على أهل الدار تحية من عند الله ، وهذا ذوق إسلامي رفيع ، يحفظ للبيوت حرمتها ، وقد جاءت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۖ ﴾ [٤] ، فهذا أمر للمؤمنين ألا يدخلوا بيوت غيرهم حتى يؤذن لهم ، وحتى يسلموا على أهل البيت ، وذلك حتى لا يطلعوا على العورات

(١) تفسير الرازي (٢٨ / ١٧٧) .
(٢) هود : ٧٨ .
(٣) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (١٢ / ١٢٨) .
(٤) النور : ٢٧ .

ولا يفاجئوا الساكنين الوادعين فيزعجوهم ويحدثوا لهم التضايق والحرج ، وقد أكد الحق سبحانه وتعالى هذا المعنى في قوله : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ﴾ (١) أي « إذا دخلتم أيها المؤمنون والمؤمنات بيوتا فسلموا على أهلها وحيوهم تحية ثابتة من عند الله ، مباركة طيبة ، أي مستتبعة لزيادة البركات والخيرات ولزيادة المحبة والمودة » (٢) .

ولعلك تلحظ أن الحق سبحانه وتعالى عبر هنا عن أهل البيت بـ « أنفسكم » وكأن في ذلك إرشادا للضيف أو الزائر بوجه عام بأن يجعل أهل الدار بمنزلة نفسه في محبتهم وحمايتهم وسترهم وإدخال السرور عليهم .

وإذا جئنا إلى التطبيق العملي لهذه الصورة الذوقية سنجدها ماثلة في موقف الملائكة الكرام عندما قدموا على سيدنا إبراهيم، حيث إنهم قبل أن يبلغوه بالبشرى بدأوه بالسلام، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا ...﴾ .

ثانيا : المبادرة لتناول واجب الضيافة وإظهار العذر عند الإمساك

فمن الذوق أنه إذا قدم الطعام للضيف أن يبادر بالأكل ، فإن تكريم الضيف تعجيل القرى وتكريم صاحب المنزل من ضيفه المبادرة بالقبول ، ولذلك عندما قبض الملائكة أيديهم تخوف منهم سيدنا إبراهيم وقال: ﴿ قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾ (٣) .

لكن إذا كان لدى الضيف عذر في تناول واجب الضيافة من طعام أو شراب ، فمن الذوق أن يظهر عذره بعبارة حسنة لا تحرج المضيف ، وذلك كما فعلت الملائكة عندما خاف منهم سيدنا إبراهيم عندما أمسكوا عن الطعام ، حيث قالوا :

(١) النور : ٦١ .
(٢) التفسير الوسيط (١٠ / ١٥٧) .
(٣) الحجر : ٥٢ .

﴿ لَا تَخَفۡۖ ﴾[1] وبعد ذلك أبدوا عذرهم بكلام حسن حيث بشروه بغلام عليم ، فأفهموه أنهم ليسوا ممن يأكلون ، ولم يقولوا : إن طعامك لا يصلح لنا ، وهذا الملمح الذوقي أشار إليه الإمام الرازي ، حيث قال: « يجب إظهار العذر عند الإمساك، يدل عليه قوله : ﴿ لَا تَخَفۡۖ ﴾ ثم تحسين العبارة في العذر ... ، يدل عليه قوله : ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ ﴾ [2] حيث فهموه أنهم ليسوا ممن يأكلون ، ولم يقولوا لا يصلح لنا الطعام والشراب » [3] .

ثالثا : عدم مد النظر إلى خصوصيات المكان

وهذا الأمر من الذوقيات المهمة التي يجب أن يتحلى بها الضيف ، حيث إن من العادات السيئة عند البعض أنه إذا دخل بيتا أطلق نظره يمينا وشمالا ، وربما تقع عينه على عورات المكان ، وهذا ليس من الذوق الإسلامي في شيء ، فشرعنا الحنيف نبه على ضرورة غض البصر وعدم مده للنظر إلى خصوصيات البيوت .

وهذه الصورة الذوقية يمكننا أن نلمحها في حال رسول الله ﷺ عندما كان في ضيافة ربه ليلة الإسراء والمعراج ، حيث وصف الحق سبحانه وتعالى حال نبيه ﷺ فقال : ﴿ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧ ﴾ [4] أي لم تمتد إلى غير المسموح به ، يقول الشيخ الشعراوي : « وقوله بعدها : ﴿ وَمَا طَغَىٰ ﴾ أي ما طغى بصره ولا تجاوز الحد في الرؤية وما مده لغير غايته ، وهنا نتعلم الأدب في النظرة ، وكيف تكون في حدود المسموح به ، كالضيف يدخل بيتك في وجود أهلك وبناتك فلا تمتد عينه ليرى ما لا يجوز له رؤيته » [5] .

---

(١) الذاريات : ٢٨ .
(٢) الذاريات : ٢٨ .
(٣) تفسير الرازي (٢٨ / ١٧٧) بتصرف يسير .
(٤) النجم : ١٧ .
(٥) تفسير الشعراوي (٢٣ / ١٤٦٨٨) .

رابعا : عدم التضييق على المضيف بتطويل الجلوس عنده

وقد جاءت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ ﴾ (١) .

فهذه الآية تناسب واقعنا المعاصر ، فحين يقوم بعض الناس بزيارة بعضهم قد يتثاقل المزور من الزائر لطول مكثه ، ويظهر له ذلك ولكن الزائر لا يبالي في ذلك ويبقى جالسا مدة طويلة دون مراعاة لحال المزور وظروفه في بيته ، فلو تمسكنا بآدابنا الإسلامية لما تثاقل بعضنا من بعض، ولبقينا خفاف الظل تجمع بيننا المودة، وعلى هذا يفضل للزائر مراعاة وقت الزيارة ، فإن عرف من المزور عدم استحبابه للزيارات الطويلة مكث قليلا والعكس صحيح ، وهذا يعود إلى العرف الاجتماعي بين الأسر والأقارب (٢) .

وقد جاء في سبب نزول هذه الآية عن أنس ﷺ : « لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام ، فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام ، فلما قام قام من قام ، وقعد ثلاثة نفر فجاء النبي ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا، فانطلقت فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل فذهبت أدخل، فألقى الحجاب بيني وبينه فأنزل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ ... ﴾ (٣).

---

(١) الأحزاب : ٥٣ .
(٢) الضيف في القرآن الكريم ص ١١ .
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب تفسير القرآن ، باب لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم (٦ / ١١٨) رقم الحديث (٤٧٩١) .

وتأمل هنا قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ ﴾ « أي إذا انتهيتم من طعامكم فتفرقوا ولا تمكثوا في البيت مستأنسين لحديث بعضكم مع بعض ، أو لحديثكم مع أهل البيت ... ، وأطلق سبحانه نفي الاستئناس للحديث من غير بيان صاحب الحديث للإشعار بأن المكث بعد الطعام غير مرغوب فيه على الإطلاق، مادام ليس هناك من حاجة إلى هذا المكث ، وهذا أدب عام لجميع المسلمين » (١) .

هذا وقد لفت رسول الله ﷺ الانتباه إلى هذه الصورة الذوقية حيث قال في آداب الضيافة : « ولا يثوي عنده حتى يحرجه » (٢) أي لا يحل للضيف أن يبقى عند المضيف حتى يحرجه .

(١) تفسير الوسيط (١١ / ٢٣٧ – ٢٣٨) .
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الأدب ، باب إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه (٨ / ٣٢) .

المطلب الثاني

ذوقيات المجلس

المجلس : عبارة عن مكان مهيأ للجلوس يتيح لمرتاديه من الناس فرصة الحوار والنقاش وتبادل المعلومات حول قضية عامة أو خاصة . والمجالس متنوعة ، فهناك مجالس العلم التي تتسم بالجدية والسؤال والجواب ، وهناك مجالس الذكر التي تتسم بالوعظ والإرشاد ، وهناك مجالس الفرح التي تتسم بالبهجة ،وهناك مجالس العزاء التي تتسم بالحزن والتسلية ، وهناك مجالس السمر التي تتسم بالفكاهة ، وهناك المجالس الأسرية التي تتسم بالجو العائلي الذي تسوده المحبة (١) .

وإذا كان لكل مجلس ميزته وخصوصيته فإن جميع المجالس لها ذوقيات عامة « يحسن بالمرء مراعاتها ، ويجمل به أن يتخلق بها ، ويتجنب ما ينافيها ليكون حديثه ماتعا ، تسوده الحكمة ، وتغشاه السكينة ، وتتنزل عليه الرحمة » (٢) .

وإليكم بعضا من هذه الذوقيات في ضوء آيات القرآن الكريم :

أولا : السلام عند دخول المجلس

فأداء تحية الإسلام من أخلاق وآداب المسلمين في كل موقف ومكان ، ويتأكد استحبابها عند دخول المجالس عملا بعموم قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ﴾ ، فكلمة ﴿ بُيُوتًا ﴾ « نكرة في سياق الشرط يشمل بيت الإنسان وبيت غيره سواء كان البيت ساكنا أم لا» (٣) .

---

(١) مقال : المجالس وأهميتها وآدابها . د / يوسف السرحني "بتصرف يسير" – مجلة الوطن – عمان ١٤ يوليو ٢٠١٤ م .
(٢) أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة ص ٣ .
(٣) تفسير السعدي ص ٥٧٥ .

وقد كان هذا هديه ﷺ ، فقد روى الإمام الترمذي عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم ، فإذا أراد أن يقوم فليسلم ، فليست الأولى بأحق من الآخرة » (١) .

ثانيا : الإفساح في المجلس

وهذا ذوق عال حيث إنه يظهر حب الإنسان المسلم لأخيه وحرصه على أن ينتفع بما يدور في المجلس ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ ﴾ (٢) فهذه الآية الكريمة يستفاد منها « أن تفسح المسلمين بعضهم لبعض في المجالس محمود مأمور به وجوبا أو ندبا لأنه من المكارمة والإرفاق ، فهو من مكملات واجب التحاب بين المسلمين ، وإن كان فيه كلفة على صاحب البقعة يضايقه فيها غيره فهي كلفة غير معتبرة إذا قوبلت بمصلحة التحاب وفوائده ... قال مالك : ما أرى الحكم إلا يطرد في مجالس العلم ونحوها غابر الدهر ، يريد أن الحكم وإن نزل في مجلس النبي ﷺ فهو شامل لمجالس المسلمين من مجالس الخير لأن هذا أدب ومؤاساة » (٣) .

ثالثا : طلاقة الوجه وعدم العبوس

فطلاقة الوجه تعد لونا من ألوان التحبب إلى الناس ووسيلة مؤثرة من وسائل التقرب إلى الآخرين ومداراتهم ، قال تعالى موجها رسوله الكريم إلى هذا السلوك : ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (٤) أي تواضع لهم وألن جانبك ، وعامل أهل الإيمان بالإحسان والرفق والحنان ، ونهى الحق سبحانه وتعالى صراحة عن العبوس

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٥ / ٦٢) رقم (٢٧٠٦) وقال : حديث حسن .
(٢) المجادلة : ١١ .
(٣) التحرير والتنوير (٢٨ / ٣٨) .
(٤) الحجر : ٨٨ .

في وجه الشخص في أثناء الحديث معه ، فقد عاتب السبحانه وتعالى رسوله الكريم ﷺ لعبوسه في وجه أحد الصحابة ، قال تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ ﴾ (١) (٢) .

رابعا : الامتناع عن النجوى أثناء انعقاد المجلس

والنجوى هي كلام السر الذي يكون بين اثنين أو أكثر في تخافت وتهامس بعيدا عن أسماع الناس (٣) . فليس من الأدب إذا ضم المجلس ثلاثة أن يتهامس اثنان دون الثالث ، لأن ذلك يحزنه ويوحشه ويجرح شعوره ، ويصيبه بالضيق من جراء جلوسه ساكتا وحده ، وقد تخالجه الريب ، وتساوره الظنون ، فيظن أنهما ينهشان في عرضه ، أو يحطان من قدره ، أو يكيدان له مكيدة ، فيقوم من المجلس موغر الصدر ، محزون القلب .

فللإبقاء على المودة ، والمحافظة على الألفة منعت مناجاة الاثنين دون الثالث إلا أن يستأذناه فيأذن ، فلا حرج إذا ، لأن المنع حقه ، فيستباح بإذنه (٤) .

وقد جاء النهي عن النجوى في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـٔٗا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ... ﴾ (٥) فهذه الآية وإن كانت قد جاءت تسلية للمؤمنين عما أصابهم من الحزن بسبب نجوى المنافقين ، فهي عامة في تأصيل هذا الذوق من عدم التناجي أثناء انعقاد المجالس ، ويؤكد ذلك قوله ﷺ : « إذا كانوا ثلاثة ، فلا يتناجى اثنان دون الثالث » (٦) .

---

(١) عبس : ١ – ٢ .
(٢) مقال أدب المعاملة في ضوء القرآن الكريم .
(٣) التفسير القرآني للقرآن . ت د / عبد الكريم الخطيب (١٤ / ٨٢٣) ، ط : دار الفكر العربي – القاهرة .
(٤) أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة (١١٨ – ١١٩) .
(٥) المجادلة : ١٠ .
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الاستئذان ، باب لا يتناجى اثنان دون الثالث (٨ / ٦٤)) رقم (٦٢٨٨) .

قال ابن حجر : « قال الخطابي : وإنما قال يحزنه – أي في الآية – لأنه قد يتوهم أن نجواهما إنما هي لسوء رأيهما فيه أو لدسيسة غائلة له » (١) .

خامسا : النهي عن فضول الكلام والخوض الباطل

فأكثر الناس لا يكاد ينقطع لهم الكلام ، ولا تهدأ لألسنتهم حركة ، فإذا ذهبت تحصي ما قالوا وجدت جله لغوا ضائعا ، لا يقدم ولا يؤخر ، ولا يسمن ولا يغني من جوع، بل هو إلى الضرر أقرب منه إلى النفع(٢).

وقد حث القرآن الكريم على الابتعاد عن فضول الكلام وعدم الخوض في الباطل ، والالتزام بهذا التوجيه القرآني من شأنه أن يصيب في بناء مجتمع متماسك يبتعد فيه الناس عن الثرثرة والإكثار من الكلام الذي لا حاجة إليه، قال تعالى: ﴿ * لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (٣) فهذه الآية القرآنية توجه المؤمنين إلى أن يكون كلامهم هادفا، فإن من شأن المسلم الواعي ألا يخوض فيما لا يعينه ، وألا يكثر من الكلام المباح غير الهادف والذي لا خير فيه (٤) .

وقد وصف الله ﷻ المؤمنين فقال ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾(٥) « واللغو ما لا فائدة فيه من الأقوال والأعمال ، فيدخل فيه اللهو والهزل وكل ما يخل بالمروءة وبآداب الإسلام » (٦) .

(١) فتح الباري لابن حجر (١١ / ٨٣) ، ط : دار المعرفة – بيروت ١٣٧٩ هـ .
(٢) أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة ص ١٠٣ .
(٣) النساء : ١١٤ .
(٤) أدب المعاملة في ضوء القرآن الكريم .
(٥) أدب المعاملة في ضوء القرآن الكريم .
(٦) التفسير الوسيط (١٠ / ١٢) .

سادسا : ترك التحدث على سبيل المفاخرة

فبعض الناس لا يفتأ يتحدث عن نفسه ، فيذكر محاسن نفسه ويمتدح أعماله ،ويفتخر بما يصدر منه من أفضال وأياد ، ويدخل في ذلك تحدثه عن إعجابه بكلامه وتصنيفه وشعره وسائر ما يخصه (١) .

وهذا كله ليس من الذوق في شيء ، بل ورد النهي عنه في قوله تعالى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ ﴾ (٢) « فهذا تحذير للمؤمنين من العجب بأعمالهم الحسنة عجبا يحدثه المرء في نفسه أو يدخله أحد على غيره بالثناء عليه بعمله » (٣) .

ولكن ينبغي التنبيه على أنه إذا وجد ما يقتضي الحديث عن النفس وتزكيتها – إما للتعريف بنفسه ، وإما لتوضيح الأمور المبهمة ، وإما لدفع تهمة ، وإما لغير ذلك من الأمور المشروعة – فإن تلك التزكية جائزة (٤).

سابعا: ترك الأسئلة التي تجلب الإحراج للسائل أو المسؤول

فالسؤال بحد ذاته غير مذموم ، كمن يسأل صاحبه وجليسه عن صحته ، وعن حاله في الجملة ، فهذا مما يشعرنا بالاهتمام والمودة .

أما كثرة الأسئلة والتعنت فيها، وتعمد الإحراج للمسؤول عنها ، فهذا مما لا ينبغي، وذلك كحال من يسأل عما لا يعنيه، أو كحال من يسأل الناس عن أمورهم الخاصة التي لا يرتضون أن يطلع عليها أحد غيرهم (٥) . وقد جاء النهي عن هذا النوع من الأسئلة في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن

(١) أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة ص ٩ .
(٢) النجم : ٣٢ .
(٣) التحرير والتنوير (٢٧ / ١٢٥) .
(٤) أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة ص ٩ .
(٥) أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة ص ١٨ .

تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ... ﴾ (١) .

فهذا – كما يقول ابن كثير – تأديب من الله لعباده المؤمنين ، ونهي لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها ، لأنها إن أظهرت لهم تلك الأمور ربما ساءتهم وشق عليهم سماعها (٢) . وكان رسول الله ﷺ يقول : « ويكره لكم ثلاثا : قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال » (٣) .

ثامنا : مراعاة مشاعر الناس وإظهار الاهتمام بهم لاسيما المرؤوسين وأصحاب الأعذار

من الذوقيات المطلوبة في المجالس مراعاة الجانب الإنساني مع الأتباع أو المرؤوسين ، وذلك بالتودد إليهم وإظهار الاهتمام بهم ، وقد اهتم القرآن الكريم بهذه الصورة الذوقية ، ويمكننا أن نلمح ذلك في التوجيهات الإلهية لرسول الله ﷺ بضرورة متابعة من يجالسونه من أصحابه ، وخفض الجناح لهم .

ومما يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤) « وهذا إرشاد منه سبحانه لرسوله ﷺ ... أي : وكن – أيها الرسول الكريم – متواضعا لين الجانب لمن اتبعك من المؤمنين ، ولقد كان النبي ﷺ سيد المتواضعين مع أصحابه ، إلا أن الآية الكريمة تعلم المسلمين في كل زمان ومكان – وخصوصا الرؤساء منهم – كيف يعامل بعضهم بعضا » (٥) .

وكذلك يقول الحق تبارك وتعالى مخاطبا نبيه ﷺ : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ

---

(١) المائدة : ١٠١ .
(٢) تفسير ابن كثير (٢ / ٦٣٥) .
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه : كتاب الأقضية ، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة (٣ / ١٣٤٠) رقم (١٧١٥) .
(٤) الحجر : ٨٨ .
(٥) التفسير الوسيط (١٠ / ٢٨٧) .

ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾ (١) ، كما نلمح ذلك أيضا في عتاب الحق سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ في موقفه مع سيدنا عبد الله بن أم مكتوم ، فقد روى الإمام الترمذي عن السيدة عائشة – رضي الله عنها – قالت : « أنزل ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ ﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى ، أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول : يا رسول الله أرشدني ، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين ، فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر ، ويقول : أترى بما أقول باسا ، فيقول : لا ، ففي هذا أنزل » (٢) .

فهذا الموقف يبين أن مراعاة مشاعر الناس من أبرز الذوقيات التي حث عليها شرعنا الشريف ، والتي يجب أن نطبقها في حياتنا عموما ، ومجالسنا على وجه الخصوص .

(١) الكهف : ٢٨ .
(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٥ / ٤٣٢) رقم (٣٣٣١) .

المطلب الثالث

ذوقيات طلب العلم

سأحاول في هذا المطلب تسليط الضوء على بعض الذوقيات التي يجب أن يتحلى بها طالب العلم ، وذلك في ضوء ما يستنبط من آيات القرآن الكريم – وخاصة في قصة سيدنا موسى مع الخضر – وهي على النحو الآتي :

أولا : التواضع في الطلب

وهذه الصورة الذوقية نلمحها في حوار سيدنا موسى عليه السلام مع العبد الصالح – الخضر عليه السلام – حيث أظهر سيدنا موسى تواضعا جما في طلبه ، ويظهر ذلك في قوله تعالى حكاية عنه : ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦ ﴾ (١) .

انظر إلى هذا الذوق العالي ، فسيدنا موسى عليه السلام يعلمنا أدب تلقي العلم وأدب التلميذ مع معلمه، فمع أن الله تعالى أمره أن يتبع الخضر، فلم يقل له مثلا : إن الله أمرني أن أتبعك، بل تلطف معه واستسمحه بهذا الأسلوب: ﴿ هَلۡ أَتَّبِعُكَ ﴾ (٢)، فهذا سؤال تلطف لا على وجه الإلزام والإجبار ، وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم (٣) .

يقول الإمام أبو حيان : « وفي هذه القصة دليل على الحث على الرحلة في طلب العلم وعلى حسن التلطف والاستنزال والأدب في طلب العلم » (٤) .

كما أن قوله: ﴿ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ ﴾ يشعر بالتواضع حيث إنه لم

(١) الكهف : ٦٦ .
(٢) تفسير الشعراوي (١٤ / ٨٩٥٥) .
(٣) تفسير ابن كثير (٣ / ١١٤١) .
(٤) تفسير البحر المحيط لأبي حيان (٧ / ٢٠٥) ط : دار الفكر – بيروت ١٤٢٠هـ .

يقل: اجعلني مثلك في العلم، بل طلب أن يعطيه ولو جزءًا مما أعطاه الله ﷻ.

ثانيا : عدم المقاطعة والعجلة في معرفة الأمور

فمن الذوقيات المهمة في طلب العلم الصبر وعدم مقاطعة الشيخ والتعجل في معرفة المسائل ، وهذه الصورة الذوقية نلمحها في قول العبد الصالح لسيدنا موسى : ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (١).

أي إذا رأيت مني شيئا خفي عليك وجه صحته فأنكرت في نفسك فلا تفاتحني بالسؤال حتى أكون أنا الفاتح عليك، وهذا من أدب المتعلم مع العالم المتبوع (٢).

يقول الإمام القرطبي : « وهذا من الخضر تأديب وإرشاد لما يقتضي دوام الصحبة ، فلو صبر ودأب لرأى العجب ، لكنه أكثر من الاعتراض فتعين الفراق والإعراض » (٣) .

وهذا الملمح الذوقي يلوح لنا أيضا في التوجيه الإلهي لرسول الله ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ﴾ (٤) حيث كان رسول الله ﷺ يراجع القراءة قبل أن ينتهي سيدنا جبريل خشية أن يفوته شيء ، فطمأنه ربه ووجهه بقوله: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ﴾ أي لا تبادر بتلقف القرآن حين يتلوه عليك جبريل ، واصبر حتى يفرغ منه ، فإذا فرغ منه فاقرأه ، فإن الله قد ضمن لك جمعه في صدرك وقراءتك إياه (٥).

« ويؤخذ من هذه الآية الكريمة الأدب في تلقي العلم وأن المستمع للعلم ينبغي

---

(١) الكهف : ٧٠ .
(٢) البحر المحيط (٧ / ٢٠٦) .
(٣) تفسير القرطبي (٦ / ١٩) .
(٤) طه : ١١٤ .
(٥) تفسير السعدي ص ٥١٤ .

له أن يتأنى ويصبر حتى يفرغ المملي والمعلم من كلامه المتصل بعضه ببعض ، فإذا فرغ منه سأل إن كان عنده سؤالا ، ولا يبادر بالسؤال وقطع كلام متلقي العلم فإنه سبب الحرمان » (١) .

ثالثا : المبادرة بالاعتذار عند وقوع الخطأ منه

وذلك كما فعل سيدنا موسى عليه السلام حين أنكر على العبد الصالح خرقه للسفينة، فقال له: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ ﴾ (٢)، هنا بادر سيدنا موسى بالاعتذار، فقال: ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾ (٣)، وما أجمل هذا الأسلوب فهو اعتذار بنسيان الوصية على أبلغ وجه ، كأن نسيانه أمر محقق عند الخضر عليه السلام لا يحتاج أن يفيده إياه استقلالا ، وإنما يلتمس منه ترك المؤاخذة به ، فما مصدرية والباء صلة المؤاخذة ، أي لا تؤاخذ بنسياني وصيتك في ترك السؤال عن شيء حتى تحدث لي منه ذكرا (٤) .

(١) المرجع السابق نفس الصفحة .
(٢) الكهف : ٧٢ .
(٣) الكهف : ٧٣ .
(٤) تفسير الآلوسي (٨ / ٣١٧) .

المطلب الرابع
ذوقيات المسلم في دعاء الحق سبحانه وتعالى
وفي حديثه عنه جل شأنه

وفي هذا المطلب سنسلط الضوء على الذوقيات التي يجب أن يتحلى بها المؤمن في مناجاة ربه ﷻ ، وفي حديثه عنه ، وتتمثل في الصور الآتية :

الصورة الأولى : حسن الأدب في دعاء الحق سبحانه وتهالى

فالدعاء عبادة عظيمة وحلقة اتصال بين العبد وربه ، ولذلك يجب أن يراعى فيها الذوق والأدب بما يليق بجناب الحق سبحانه وتعالى .

هذا وقد نظرت في سورة الفاتحة فوجدتها تشتمل على دعاء عظيم ، وهو قوله تعالى:﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ (١) ، وبالنظر في سياق هذا الدعاء نجد أنه قد حُف بصور ذوقية مهمة أذكرها على النحو الآتي :

١ – تقديم الوسيلة بين يدي الدعاء : فقد تم التمهيد لهذا الدعاء بأعظم الوسائل وهي حسن الثناء على الله ﷻ بإحسانه القديم ووصفه الكريم في قولك: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ (٢) ثم بإعلانك إفراد العبادة له – جل شأنه – والعبادة مظهر واضح للحمد وعلامة دالة على الشكر ، وذلك في قولك : ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ (٣) ثم بإفرادك الاستعانة به في قولك : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ فكان ذلك أجمل توطئة للطلب والدعاء .

---

(١) الفاتحة : ٦ – ٧ .
(٢) الفاتحة : ٢ – ٤ .
(٣) الفاتحة : ٥ .

٢ – طَلَبٌ لما طُلِب . أي أنت تطلب الذي دعيت إليه ، فأنت دعيت إلى الاستقامة والهداية، قال تعالى: ﴿ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ ﴾(١)، وها أنت تطلب من الله الذي طلبه منك، فتقول: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ وهذا الأدب في الدعاء مستفاد من هدي النبي ﷺ فقد كان يقول في دعائه: « اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» (٢) .

٣ – التعميم في الدعاء . وهذا واضح في قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ ، فكما أنت أدرجت نفسك ضمن العابدين في قولك: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ فتمم الأمر بإدراج نفسك ضمن الداعين بقولك : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ والتعميم فيه إشارة إلى كون الداعي صاحب قلب مفتوح يحب لغيره ما يحب لنفسه ، وهذا باب عظيم للقرب من الله .

٤ – أن يكون الدعاء مشتملاً على الرغائب والرهائب . فعليك أن تدعو بتحصيل المسار وكذلك بدفع المضار ، وهذا واضح في جملة الطلب التي معنا ففيها طلب لتحصيل النفع بسلوك طريق الهداية على الصراط المستقيم ، وفيها طلب لدفع الضر بالبعد عن طريق الغواية والضلال . واشتمال الدعاء على الرغائب والرهائب ، ذكره الحق سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ ﴾ (٣) .

٥ – الإلحاح في الدعاء . فالإلحاح كالطرق لفتح الباب ، والإلحاح في جملة

(١) فصلت : ٦ .
(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه (١ / ٤٠٧) ح (١٠١٠) وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .
(٣) الأنبياء : ٩٠ .

الطلب مأخوذ من التفصيل بعد الإجمال ، وذلك بنعت الصراط الأول بوصفه الخاص وهو الاستقامة في نفسه ، ثم بوصفه بسالكيه وهم المنعم عليهم ، فعرف الصراط مرة بوصفه ، ومرة بوصف سالكيه .

٦ – عدم التصريح بما لا يناسب مقام الرجاء . وهذا واضح في نسبة الإنعام إلى الله في ﴿ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ وإيهامه في مقام الغضب حيث قال: ﴿ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ ﴾ .

٧ – إعظام المسالة . فمن آداب الدعاء أن يسأل السائل أعظم الأمور فالذي يلجأ إلى باب الكبير ويسأل السؤال الحقير يكون قد أخطأ في جناب الملك القدير. ولا شك أن هذا الأدب أشارت إليه جملة الدعاء في الفاتحة حيث قد سئل فيها أعظم المطالب وأسمى المقاصد وهو الهداية إلى الصراط المستقيم ، ولذلك جعلها الله مقترنة بالفلاح الأعظم ، قال تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥ ﴾ (١) .

٨ – الإجمال في الدعاء . فقد كان النبي ﷺ يدعو بالجوامع ، والإجمال هنا متمثل في قوله تعالى : ﴿ ٱهۡدِنَا ﴾ فإنه يتضمن معاني كثيرة ، وكأنك تقول : عرفنا ، ثبتنا ، دلنا ، زدنا .

٩ – أن يكون ضمن عبادة . ومن هنا كانت الفاتحة ركنا أصيلا في الصلاة حتى يكون الدعاء مندرجا ضمن أعظم العبادات العملية وهي الصلاة ، وبدخول الدعاء في الصلاة يكون قد استوفى آدابه الكمالية التي منها : التطهير ، واستقبال القبلة ، وحسن الإقبال على الله بتفريغ الباطن عن مشوشات الذكر ، واختيار أفضل الأزمنة ، ووقت الصلاة أفضلها .

(١) البقرة : ٥ .

١٠ – أن يقول في الختم « آمين ». و« آمين » اسم فعل بمعنى : استجب، أو أجب ، أو كذلك فافعل ، والإجماع على أنه ليس من الفاتحة ، وإنما وقع الترغيب في الختم به ، فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي موسي الأشعري ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا قال – يعنى الإمام – غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا : آمِين ، يُجِبْكُم الله » (١) .

هذا وإتماما للفائدة في هذا المقام يجب التنبيه على أن من ذوقيات الدعاء أيضا خفض الصوت في حضرة مناجاة الحق سبحانه وتعالى ، فالله ﷻ يقول : ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (٢) ، وقد وصف الله ﷻ حال سيدنا زكريا عندما ناداه بقوله: ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ (٣).

فخفض الصوت عند الدعاء « أعظم في الأدب والتعظيم ، ولهذا لا تخاطب الملوك ولا تسأل برفع الأصوات، وإنما تخفض عندهم الأصوات ، ويخف عندهم الكلام بمقدار ما يسمعونه ، ومن رفع صوته لديهم مقتوه ، ولله المثل الأعلى ، فإذا كان يسمع الدعاء الخفي فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به » (٤) .

الصورة الثانية : حسن الأدب في إسناد الأمور إليه جل شأنه

كذلك من الذوقيات المهمة انتقاء الألفاظ التي تسند معانيها إلى الحق سبحانه وتعالى ، فيجب على المسلم أن يتحرى الألفاظ بما يليق بجناب الله ﷻ ، وفي القرآن الكريم العديد من الأمثلة الدالة على ذلك ، أذكر منها :

– قوله تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه : كتاب الصلاة ، باب التشهد في الصلاة (١ / ٣٠٣) ح (٤٠٤).
(٢) الأعراف : ٥٥ .
(٣) مريم : ٣ .
(٤) بدائع الفوائد لابن القيم (٣ / ٦) .

﴿ ٨٠ ﴾ [١] فنسب المرض الذي هو نقمة في ذاته إلى نفسه ، والشفاء الذي هو نعمة إلى الله جل شأنه لمراعاة حسن الأدب [٢] .

– ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن الخضر عليه السلام حيث قال في شأن السفينة : ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ [٣] ، أما في شأن الغلامين ، فقال : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا ﴾ [٤] فتلاحظ أنه نسب ما ظاهره الشر وهو خرق السفينة إلى نفسه ، في حين نسب فعل الإحسان وهو بلوغ الغلامين أشدهما إلى الله ﷻ مراعاة لحسن الأدب مع الله [٥] .

– ومن ذلك أيضا قوله تعالى حكاية عن الجن : ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾ [٦] يقول الإمام الآلوسي : « ولا يخفى ما في قولهم ﴿ أَشَرٌّ أُرِيدَ ... ﴾ من الأدب حيث لم يصرحوا بنسبة الشر إلى الله ﷻ كما صرحوا به في الخير وإن كان فاعل الكل هو الله تعالى، ولقد جمعوا بين الأدب وحسن الاعتقاد » [٧] .

الصورة الثالثة : تغليب ذكر النعماء على ذكر مواطن البلاء

وهذا أيضا ذوق مهم حيث يجب على المسلم في حديثه عن الحق سبحانه وتعالى أن يتذكر النعم ويتغافل عن الابتلاءات وذلك حتى لا يكون هناك شبهة ضجر مما حل به من البلاء ، ومن الآيات التي تبرز فيها هذه الصورة الذوقية قوله

---

(١) الشعراء : ٨٠ .
(٢) تفسير الآلوسي (١٠ / ٩٥) .
(٣) الكهف : ٧٩ .
(٤) الكهف : ٨٢ .
(٥) تفسير الآلوسي (١٠ / ٩٥) .
(٦) الجن : ١٠ .
(٧) تفسير الآلوسي (١٠ / ٩٨) .

تعالى حكاية عن سيدنا يوسف : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ ﴾ (١) فتأمل قوله : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ ﴾ فهو هنا تذكر النعمة وتغافل عن الأحداث الجسام التي مرت به ، وذلك من حسن الأدب مع الله ﷻ (٢) .

الصورة الرابعة : ترك استعمال الألفاظ التي يتوهم منها مشاركة الله ﷻ في أمر ما

ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن سيدنا عيسى : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ ﴾ (٣) ، فهنا نلحظ صورة ذوقية مهمة حيث كان الظاهر أن يقول : ما أمرتهم إلا بما أمرتني به إلا أنه قيل : ما قلت لهم نزولا على قضية حسن الأدب لئلا يجعل ربه سبحانه ونفسه معا آمرين (٤) .

---

(١) يوسف ك ١٠٠ .
(٢) تفسير الآلوسي (٧ / ٥٨) .
(٣) المائدة : ١١٧ .
(٤) تفسير الآلوسي (٤ / ٦٤) .

المطلب الخامس

طائفة من الذوقيات الضرورية في التعامل مع الغير

ويندرج تحت هذا المطلب ما يلي :

الصورة الأولى: التغافل عن زلات الغير

كثيرا ما نصادف أشخاصا تصدر منهم كلمات أو أفعال طائشة ، ولو قابل الإنسان كل تصرف كهذا بالانفعال والعصبية سيتعرض للتعب الجسدي والنفسي ، ومن هنا يحتاج الإنسان إلى شيء من التغافل بمعنى غض النظر والتجاوز عن بعض الأخطاء التي تحصل من الغير ، فلا تدقيق ولا ترصد للسوء في كل كلمة وأي تصرف .

وهذه الصورة الذوقية أفصح عنها القرآن الكريم في أوائل سورة التحريم في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ (١) .

فهذه الآية نزلت في السيدة حفصة – رضي الله عنها – حيث أسر لها النبي ﷺ حديثا ، وأمر أن لا تخبر به أحدا ، فحدثت به عائشة – رضي الله عنها – وأخبره الله بذلك الخبر الذي أذاعته ، فعرفها ﷺ ببعض ما قالت ، وأعرض عن بعضه ، كرما منه ﷺ (٢) .

فتأمل هذا الذوق المحمدي في قوله تعالى : ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ﴾ حيث تغافل ﷺ ولم يذكر لها كل الأشياء وذلك أدب منه ﷺ « حيث إن الكف عن

(١) التحريم : ٣ .
(٢) تفسير السعدي ص ٨٧٢ .

بعض العتب أبعث على حياء المعتوب وأعون على توبته وعدم عودته إلى فعل مثله» (١) .

يقول صاحب التحرير والتنوير : « وإعراض الرسول ﷺ عن تعريف زوجه ببعض الحديث الذي أفشته من كرم خلقه ﷺ في معاتبة المفشية وتأديبها إذ يحصل المقصود بأن يعلم بعض ما أفشته فتوقن أن الله يغار عليه ، قال سفيان : ما زال التغافل من فعل الكرام » (٢) .

الصورة الثانية : إنزال الناس منازلهم

من الذوقيات التي حثنا الإسلام عليها مراعاة الناس ومراتبهم ومناصبهم ، وتفضيل بعضهم على بعض في المجالس ، وفي القيام ، والمخاطبة ، والمكاتبة ، وغير ذلك من الحقوق (٣) . ولاشك أن هذا خلق رفيع له أثر في ترقيق القلوب وتقريب المسافات وإعطاء كل ذي حق حقه.

وقد جاء في صحيح مسلم عن السيدة عائشة – رضي الله عنها – قالت : قال رسول الله ﷺ « أنزلوا الناس منازلهم » (٤)، أي : احفظوا حرمة كل واحد على قدره وعاملوه بما يلائم حاله في عمر ودين وعلم وشرف ، فلا تسووا بين الخادم والمخدوم ، والرئيس والمرؤوس ، فإنه يورث عداوة وحقدا في النفوس (٥) .

وهذه الصورة الذوقية نلمحها في قوله تعالى مخاطبا سيدنا موسى وهارون –

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (٢٠ / ١٨٧) ، ط : دار الكتاب الإسلامي – القاهرة .
(٢) التحرير والتنوير (٢٨ / ٥٥٣) .
(٣) الذوق وأثره في الدعوة الإسلامية . ت د / عبد الرؤوف السامرائي ص ٢٧٢ ، بحث منشور بكلية التربية – جامعة سامراء – المجلد الرابع عشر – العدد الثاني والخمسون ٢٠١٨ م .
(٤) أخرجه أبو داود في سننه (٧ / ٢١٠) رقم (٤٨٤٢) ، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط : حديث حسن ، ط : الرسالة العلمية ، ط : الأولى ١٤٣٠ هـ .
(٥) فيض القدير للمناوي (٣ / ٥٧) ، ط : المكتبة التجارية الكبرى – مصر ، ط : الأولى .

عليهما السلام – حين ذهبا لمقابلة فرعون : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ (١) .

فتأمل جمال العبارة ، فهذا فرعون الذي بلغ من الطغيان ما بلغ ، ومع ذلك يأمر الحق – سبحانه وتعالى – سيدنا موسى وهارون بأن يلينا له الكلام وينزلاه منزلته ، وما ذلك إلا من باب الذوق والأدب حتى يلين لهما ويرق قلبه لدعوتهما ، وهذا كان حال رسول الله ﷺ ، فقد كان ينزل الناس منزلتهم ، وهذا يتضح في صور كثيرة ، من أهمها الرسائل التي كان يوجهها إلى الملوك ، فقد كان يخاطبهم بما يليق بمكانتهم ، ومن ذلك ما جاء في رسالته إلى هرقل حيث قال : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّ الله الرحمن الرحيم . من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم . السلام على من اتبع الهدى » (٢) .

الصورة الثالثة : انتقاء أفضل العبارات وأرقها عند مخاطبة الوالدين

وقد جاء التوجيه الإلهي بذلك في قوله تعال : ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ (٣) .

وخير نموذج على ذلك نصح سيدنا إبراهيم لأبيه الوارد في سورة مريم في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ

(١) طه : ٤٤ .
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الاستئذان ، باب كيف يكتب الكتاب إلى أهل الكتاب (٨ / ٥٨) رقم (٦٢٦٠) .
(٣) الإسراء : ٢٣ .

ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ٤٦ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ٤٧ ﴾ (١) .

فما أبدع الأساليب التي استخدمها سيدنا إبراهيم ، ناهيك عن العبارات التي تحمل ذوقا وأدبا عاليا في مخاطبة الوالد حتى وإن كان كافرا ، فلو لاحظت ستجد أنه « ابتدأ خطابه بذكر أبوته الدالة على توقيره، ولم يسمه باسمه ، ثم أخرج الكلام معه مخرج السؤال فقال : ﴿ لِمَ تَعۡبُدُ ﴾ ولم يقل : لا تعبد ، ثم قال : ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ ﴾ فلم يقل : إنك جاهل لا علم عندك ، بل عدل عن هذه العبارة إلى ألطف عبارة تدل على هذا المعنى ، ثم قال : ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ٤٥ ﴾ فنسب الخوف إلى نفسه دون أبيه كما يفعل الشفيق الخائف على من يشفق عليه .

وقال : ﴿ يَمَسَّكَ ﴾ فذكر لفظ المس الذي هو ألطف من غيره ، ثم نكر العذاب ، وذكر الرحمن ولم يقل الجبار ، ولا القهار ، فأي خطاب ألطف وألين من هذا ؟! » (٢) .

الصورة الرابعة : إذا أحسنت للغير فبادر بالابتعاد كي لا تعرضه للإحراج

أحيانا يقدم الإنسان معروفا لغيره ، إلا أن البعض بنبة حسنة يظل متابعا لحال من أحسن إليه بالسؤال الصريح وغيره ، الأمر الذي قد يسبب للشخص الإحراج ، ومن هنا كان من الذوق بعد فعل الإحسان أن يبتعد المحسن وإن كان لابد من متابعة تكون بشكل سري لا يجرح أحدا ، وهذا المعنى نلمحه في قوله تعالى حكاية

(١) مريم : ٤٢ – ٤٧ .
(٢) بدائع الفوائد لابن القيم (٣ / ١٣٣) .

عن سيدنا موسى عليه السلام ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ ﴾ (١) .

فسيدنا موسى قدم المعروف وسقى للجاريتين ، ثم بعد ذلك تولى للظل كي لا يضعهما في موقف محرج من لزوم شكره وما إلى ذلك .

الصورة الخامسة : قدم لنفسك في علاقتك بزوجتك

وهذه الصورة الذوقية نلمحها في قوله تعالى : ﴿ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ ﴾ (٢) .

فالتقدمة للنفس لها معان كثيرة ، ومنها أن ينوي الإنسان عند اللقاء الزوجي أن ينجب ذرية صالحة نافعة تكون ذخرا له في الآخرة ، ولكن هناك معنى آخر للتقدمة للنفس تنبغي الإشارة إليه وهو أنه ليس من اللائق عند المعاشرة أن يقع الرجل على امرأته كما يقع الفحل على البهيمة ، فهذا ليس من الذوق في شيء ، بل لابد أن يقدم لنفسه بالكلمة الطيبة والابتسامة والقبلة وغيرها من الأشياء التي تزيل الحواجز النفسية ، وتشعر المرأة بقدرها .

(١) القصص : ٢٤ .
(٢) البقرة : ٢٢٣ .

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبتوفيقه يصل المرء إلى أسمى الغايات.

وبعد ....

ففي ختام هذه الدراسة أود أن أشير إلى أبرز النتائج التي ظهرت لي من خلال هذا البحث ، والتي يمكن إجمالها فيما يلي :

١ – الذوق ليس أمرا ثانويا في الدين، ولكنه ركن أصيل فيه، ودليل عملي على فهم مقاصده الداعية إلى نشر المحبة والاحترام بين أفراد المجتمع.

٢ – للذوق مكانة كبيرة في الشريعة الإسلامية ، وخير شاهد على ذلك كم النصوص التي تمدح أهل الذوق ، إضافة إلى حرص الشرع الشريف على إبراز صور الذوق السليم في مختلف مجالات الحياة .

٣ – تتنوع صور الذوق الواردة في القرآن الكريم، وتشمل معظم المجالات الحياتية لاسيما التي لها علاقة بالتعامل مع الغير ، مثل ذوقيات المحادثة والاستماع والحوار وغيرها .

٤ – للذوق أهمية كبيرة في علاج الكثير من المشكلات التي نواجهها في حياتنا ، خاصة تلك المشكلات الناتجة عن اختلاف الآراء ووجهات النظر ، حيث إنه بنظرة متأنية لذوقيات الحوار وآداب الاختلاف سيصل كل طرف إلى مقصوده دون اللجوء للعنف والصدام .

٥ – للذوق الإسلامي فوائد كثيرة حيث إنه يحقق السلام النفسي للإنسان ويكسبه رضا الله تعالى ونيل الجنة ، كما أنه يحقق السلام المجتمعي، وذلك بتقوية الروابط بين أفراد المجتمع ، ونشر مظاهر الحب والاحترام والتلطف في معاملة الغير .

٦ – ظهر من خلال الدراسة أن مواضع الذوق الواردة في القرآن الكريم، بعضها يأتي بشكل صريح وذلك مثل ذوقيات الاستئذان وعدم رفع الصوت

وغيرها ، وبعضها يأتي بشكل ضمني يستنبط من خلال بعض العبارات القرآنية، وذلك مثل بعض الذوقيات المتعلقة بالمحادثة والاستماع للغير .

٧ – اتضح من خلال البحث مدي حرص جمهور المفسرين على إبراز الصور الذوقية الواردة في القرآن الكريم ، وإن كان الاهتمام بهذا الجانب يظهر بشكل أكبر عند المفسرين المتأخرين كالآلوسي وابن عاشور والشعراوي وغيرهم .

٨ – ظهر من خلال الدراسة أن الذوق له أثر كبير في ميدان الدعوة إلى الله ﷻ ، وهذا أمر نحن في أمس الحاجة إليه لاسيما في هذه الأيام التي انتشر فيها صنف من الدعاة يمارسون الدعوة بشيء من القسوة والتعالي على المدعوين .

هذا وفي الختام ، إن كان لي من توجيه فإنني أوصي بضرورة إعداد موسوعة حول الذوقيات الإسلامية في القرآن والسنة ، وبعد ذلك تدخل ضمن المناهج الدراسية المقررة على الطلاب وذلك للاستفادة منها .

والله ولي التوفيق

وصلي الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم

ثبت بأهم المصادر

١ – أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة . ت : محمد إبراهيم الحمد، ط : دار ابن خزيمة – الرياض ، ١٤١٦ هـ .

٢ – أدب الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – مع الخلق في القرآن الكريم، ت : عبد الله بن أحمد الغامدي . جامعة أم القرى – بالمملكة العربية السعودية – كلية الدعوة ١٤٢٩ هـ – ١٤٣٠ هـ .

٣ – الاعتقاد للبيهقي . ط : دار الآفاق الجديدة – بيروت ، ط : الأولى ١٤٠ هـ .

٤ – إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض . ط : دار الوفاء – مصر ، ط : الأولى ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م .

٥ – الإيجابية في ختم الحوار . ت أ : محمد بن عادل السيد ، ط : الرياض ١٤٣٣ هـ – ٢٠١٢ م .

٦ – بدائع الفوائد لابن القيم . ط : دار عطاءات – الرياض ، ط : الخامسة ١٤٤٠ هـ – ٢٠١٩ م .

٧ – التحرير والتنوير لابن عاشور . ط : الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م .

٨ – تفسير ابن كثير. ط : دار الفكر، ط : الأولى ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م .

٩ – تفسير الآلوسي . ط : دار الكتب العلمية – بيروت ، ط : الأولى ١٤١٥ هـ .

١٠ – تفسير البحر المحيط لأبي حيان. ط: دار الفكر– بيروت ١٤٢٠هـ .

١١ – تفسير البغوي . ط : دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط : الأولى ١٤٢٠ هـ .

١٢ – تفسير الرازي . ط : إحياء التراث العربي – بيروت ، ط : الثالثة ١٤٢٠ هـ.

١٣ – تفسير السعدي . ط : مؤسسة الرسالة، ط: الأولى ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م .

١٤ – تفسير الطبري . ط : دار هجر، ط : الأولى ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م .

١٥ – التفسير القرآني للقرآن . ت د / عبد الكريم الخطيب ، ط : دار الفكر

العربي – القاهرة .
١٦ – تفسير القرطبي . ط : دار الحديث – القاهرة ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م .
١٧ – تفسير الكشاف للزمخشري . ط : دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ، ط : الأولى ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥م .
١٨ – التفسير الوسيط للشيخ محمد سيد طنطاوي . ط : نهضة مصر – القاهرة .
١٩ – التلطف في لغة القرآن الكريم . رسالة جامعية للباحث : أحمد محمد العموش ، جامعة آل البيت – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – عمان الرقم الجامعي (٠٥٢٠٣٠١٠١٧) .
٢٠ – تهذيب الأسماء واللغات للنووي . ط : دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.
٢١ – الخلاصة في أصول الحوار وأدب الاختلاف. جمع وإعداد : علي بن نايف الشحود .
٢٢ – الدر المنثور للسيوطي . ط : دار الفكر – بيروت .
٢٣ – الذوق وأثره في الدعوة الإسلامية. ت د / عبد الرؤوف السامرائي، بحث منشور بكلية التربية – جامعة سامراء – المجلد الرابع عشر – العدد الثاني والخمسون ٢٠١٨ م .
٢٤ – سنن أبي داود . ط : الرسالة العلمية ، ط : الأولى ١٤٣٠ هـ .
٢٥ – سنن الترمذي . ط : مصطفى البابي الحلبي – مصر ، ط : الثانية ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م .
٢٦ – الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض . مجلة الأزهر الشريف – لشهر ربيع الأول ١٤٣٦ هـ .
٢٧ – صحيح ابن حبان ، ط : مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط : الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م .
٢٨ – صحيح البخاري ، طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق، ثم صورها د / محمد زهير

وطبعها ، الطبعة الأولى عام ١٤٢٢ هـ لدى دار طوق النجاة – بيروت .
٢٩ – صحيح مسلم . ط : دار إحياء التراث العربي – بيروت .
٣٠ – الضيف في القرآن الكريم « دراسة موضوعية » ت أ : أحمد خالد شكري ، د / بشرى موسى ، ط : مجلة الجامعة للدراسات الإسلامية – أصول الدين – الشريعة – الأردن .
٣١ – الطبقات الكبرى لابن سعد . ط : دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ، ط ك الأولى ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠ م .
٣٢ – فتح الباري لابن حجر . ط : دار المعرفة – بيروت ١٣٧٩ هـ .
٣٣ – فن التفاوض . ت : وليام أروي ، ترجمة : نيفين غراب ، ط : الدار العربية للنشر والتوزيع – القاهرة ١٩٩٤ م .
٣٤ – فن الكلام . ت د : إيهاب فكرى ، ط : دون للنشر والتوزيع – القاهرة .
٣٥ – فيض القدير للمناوي . ط : المكتبة التجارية الكبرى – مصر ، ط : الأولى .
٣٦ – لسان العرب لابن منظور ، ط : دار صادر – بيروت ، ط : الثالثة ١٤١٤ هـ .
٣٧ – لطائف الإشارات للقشيري . ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط : الثالثة .
٣٨ – مستدرك الإمام الحاكم ، ط : دار الكتب العلمية – بيروت، ط : الأولى ١٤١١هـ – ١٩٩٠م .
٣٩ – معجم المصطلحات اللغوية لرمزي البعلبكي. ط: دار العلم للملايين – بيروت، ط : الأولى ١٩٩٠م .
٤٠ – المعجم الوسيط . ت : مجموعة من المؤلفين [إبراهيم مصطفى – أحمد الزيات – حامد عبد القادر] ، ط : دار الدعوة ١٤٣١هـ .

٤١ – مقال : أدب المعاملة في ضوء القرآن الكريم . منقول من موقع البلاغ « www. Balagh.com »

٤٢ – مقال : المجالس وأهميتها وآدابها . د / يوسف السرحني – مجلة الوطن – عمان ١٤ يوليو ٢٠١٤ م .

٤٣ – مقال « الإسلام دين الذوق والرقي والحضارة » لـ محمد جمال حليم ، منقول من موقع شبكة الألوكة (alukah.net) .

٤٤ – مقال لغة الحوار في القرآن الكريم للأستاذ : أبو زيد الإدريسي . مجموعة مواقع مداد – تاريخ النشر ٨ / ١١ / ٢٠٠٧ م .

٤٥ – نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي. ط: دار الكتاب الإسلامي – القاهرة .